فضيلة الفاروق

مزاج مراهقة

رواية

الفارابي

www.ithar.com/vb

عبدالله العرابي

awaraq4@hotmail.com

مزاج مراهقة

فضيلة الفاروق

مزاج مراهقة

(رواية)

دار الفارابي

www.ithar.com/vb

الكتاب: مزاج مراهقة

المؤلف: فضيلة الفاروق

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/ 11 – الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: farabi@inco.com.lb

الطبعة الأولى 1999

الطبعة الثانية 2007

ISBN: 978-9953-71-027-0

© جميع الحقوق محفوظة

لا أدري بالضبط، هل هذه قصتي أم قصة توفيق عبد الجليل؟ هل هذه محنتي أم محنته، أسئلتي أم أسئلته؟ أم عقدة ما كان بيننا من اختلاف؟

لا أدري لماذا التقينا، فقد اختلفنا كثيراً عن بعضنا بعضاً ليصمد الحب الذي نما بيننا. وأمام عبثية ما حدث، لم تكن سوى زوبعة من تلك الزوابع الصغيرة التي لم تترك وراءها إلّا بعض الخسائر التي لا تذكر.

لا أدري لماذا كنا...

كما تكون الجبال والأنهار والمدن المدفونة في التاريخ، ثم حين انتهينا... انتهينا في أفعال الماضي الذي لا يموت. لا أدري...

ولكنني أعرف اليوم أنه كان الرجل الذي تمنيت أن أكونه حين تجاوزتني رغبة الحب في أن يكون لي.

قلت لنفسي هذا هو: بهندامه، ببساطته، بسمرته، بأنفاسه، بحركاته، بكلماته... كما هو.

قلت هذا هو، على الرغم من أنه لم يكن نسخة عن فارس أحلامي، وربما كان مجرد شبيه له... لكنه كان هو وقد عرفت فيما بعد أن فارس الأحلام شيء يشبه الحب لأنه يفوق الحب فقد يصبح حاجة، لكنه أيضاً يشبه الأفلام التي نحبها، والروايات التي نعشقها، والأشخاص الذين تغير المخيلة في ملامحهم حسب ظروف الحياة والرغبة.

توفيق اختلف في دخوله أماكني الخفية، وكان حضوره شبيهاً بذاك المطر الخفيف الذي نحب في أواخر الشتاء. لكنه جاء باكراً وغادر باكراً، جاء مبهماً وغادر مبهماً. لم أستمتع به.

والحق، عندما ظننت أن كل شيء انتهى، كان كل شيء قد بدأ مغايراً...

غذاء القلب يمكن أن يكون قضمة واحدة، وقد يكون نظرة واحدة، وقد يكون وهماً... كالذي صنع مفارق دروبي عند رجلين، فضللت الطريق.

رجلان... هما في النهاية جيلان مختلفان، تياران لا يلتقيان.

تاريخان ضاعت بينهما حلقة وصل،

لكنهما كانا معاً عقلي وعاطفتي، عطبي وصلابتي، ولهذا حين أردت الاحتفاظ بأحدهما خسرت الاثنين معاً.

ها أنا اليوم أكتب...

توفيق عبد الجليل مرّ من هنا...

عبر كل سطوري، وعبر مواطن الصدق التي خبأتها، ها أنا أصف...

أقول ما حدث، وأجد عيوناً تسمعني، حين لم أجد آذاناً تفعل ذلك.

و ها أنا أعترف:

توفيق عبد الجليل يسكن هنا، في العنوان الوحيد الذي لا يمكنني أن أتوه عنه، يعيش هنا، يتحرك هنا، يمارس حضوره العذب في دمي وفي ألمي...

لكن يوسف، ذاك الآتي من بلاد العمالقة، احتل مسرحي وأضاء أضوائي ليدخل اللعبة من الباب الخلفي لعواطفي، فتح طريقاً لم أتوقعها للحب... كان بيننا، هو من جمع... وهو من فصل.

يوسف عبد الجليل، النص الذي أحالني على الدنيا بحب أكثر وارتباك أقل.

أو النص الذي كان رجلاً ولم يكن أقاصيص من حبر،

أو النص الذي لم يخلل قناعاتي، لكنه بشكل ما خلل القلب لتحيا قصصه...

كانت أيامنا تلك شاطئاً جميلاً، بنينا عليه قصوراً من الرمل، ولم تأخذ منه غير ذكرى الدفء والرائحة وصوت البحر. واليوم...

حين يكتسح الليل غرفتي، ويقرع أبواب القلب بتعاساته، لا أجد أمامي غير بقايا ذلك الدفء، والرائحة، والصوت. فيستفيق الشاطئ، وتستيقظ القصور ويبدأ الموج بكلامه المباح...

«تَكَلَّمْ... تَكَلَّمْ... تَكَلَّمْ...» على إيقاع القلب يبدأ الكلام.

كنت أقول له الكثير، ولكنني لم أجرؤ يوماً على قول ما يجب قوله، فالعائق بيننا، كان جداراً كبيراً من الاختلاف.

تلك الثقافة...

تلك اللغة...

وتلك الأشياء الصغيرة التي لا ترى ولكنها تحجبنا عن بعضنا بعضاً.

يحضرني صمته، رفيقه الذي يجالسنا حين توصله أسئلته إلى دروب مسدودة.

تحضرني بحاره التي لا تثور، وطبيعته التي لا تغضب حتى حين أنهيت ما كان بيننا بغباء. أتذكر كيف أقلعت دموعه ببزّة رسمية من مخابيء حزنه، وشيعت ما كان بيننا بهدوء.

كان الرجل الذي لا يناقش المشاعر، فكثيراً ما قال لي: «المشاعر كالأذواق، والأذواق لا تناقش».

ولهذا لم يناقشني يومها.

تحركتْ دموعه، وابتعدتْ، حتى لم أعد أراه، كان قد غادرني دون أن يقول شيئاً.

وفي الصباح التالي وجدت المدينة التي أحببتها سابقاً قد غادرت هي الأخرى، وجدتني أنزل إلى شوارع لا أعرفها، وأخاطب أناساً غرباء، وأدخل صفاً ليس صفي، وأكتب محاضرة لا تعنيني في شيء.

وكان ذاك الصباح، بداية لزمن مفكك في داخلي وبداية لخواء لم ينته بعد.

لا أذكر بالضبط كيف بدأت الأمور... ففي الغالب البدايات التي ننساها ولا ننتبه لها كيف تمر، تحبك أقدارنا بشكل عجيب!

إنها الكواليس التي تختفي وراء ستائر واقعنا كيفما كان. ولكنني أذكر أن فرحي مضطرب الحال دائماً، وأكاد أقول إنه فرح لئيم، لا يزورني إلا إذا ارتدى ثياب الحداد على أحد... فقد ارتبطت نجاحاتي المدرسية بخلافات حول الإرث بين أفراد العائلة الكبيرة، ما جعل العائلة تنقسم نصفين يوم نجحت في شهادة التعليم الابتدائي، ولا أذكر التفصيلات، ولكنني أذكر يوم وفاة جدتي الذي

صادف تماماً يوم إعلان نتائج شهادة التعليم المتوسط، وقد كانت امرأة قوية يخافها رجال العائلة، وغير ذلك كانت لنا سنداً قوياً غطى غياب والدي المستمر عن البيت، أما غيابها هي، فقد جعلنا نشعر أننا صرنا نعيش في العراء. يومها كنت الثانية في ترتيب الناجحين على مستوى الشرق الجزائري، لكن الظرف لم يكن مناسباً لتذوّق ذلك النجاح، كان مناسباً أكثر لتلقي حجر في الرأس، رماني به ابن الجيران الذي احترق غيظاً حين عيّرهُ أحدهم: «إنها بنت ونجحت، وأنت رجل ورسبت!». لقد كدت أبتسم حين وقعت الجملة في أذني، لكن الحجر أنساني شكل البسمة. ولم أجرؤ على الشكوى، خفت من ضربة حجر أخرى. لم تكن تلك المصادفات ذات أهمية، لكنها كما كل أيامي التاعسة تدفعني إلى اختراع أحلام جميلة، أهرب إليها كلما خلوت بنفسي. وكنت أجد ذخيرة لأحلامي في مكتبة خالي، أو الشاشة الصغيرة... أو بكل بساطة أغمض عيني وأضيء مسرحي الخاص...

مع مرور الأيام، صارت اللعبة رغبة وضرورة، ومتعة لا أجدها في واقع الحياة.

هيّن جداً أن نيسّر ظروف حياتنا بحلم، لكن الصعب جداً حين نصادف الحلم ذات يوم.

حين يفاجئنا بكاء، ومشاعر، وحضور جميل يملأ دنيانا.

كان كل شيء لم يخرج عن إطار الحلم بعد، حين نجحت في شهادة البكالوريا وفاجأنا والدي باتصال من فرنسا مقر إقامته وعمله. قال: «ترتدي الحجاب وتذهب إلى الجامعة».

وفي ما بعد عرفت أن رجال العائلة عارضوا التحاقي بالجامعة، وأن والدي حاول إيجاد حل وسط لإرضاء جميع الأطراف. يومها فقط عرفت أن غياب الرجل عن العائلة يعني بيتاً بلا سقف، أو على رأي ناس مصر «ظل رجل ولا ظل حيطة»، فقد كنا فريسة لسلطة الأعمام والأقارب والجيران... وعابري السبيل أحياناً!!

غير ذلك رفض والدي أن ألتحق بمدرسة الفنون الجميلة، أو مدرسة الطيران بطفراوي، ففي نظره أن الأولى مدرسة للفاشلين والثانية للرجال فقط...

ما أتعس أن يكون الفرد امرأة عندنا! فكل طموحاته تتوقف عند عتبة تاء التأنيث...

لا علينا... بالنسبة إليّ كانت الكارثة قد حلّت، وانتهى الأمر... إذ كنت أشعر أن السفر إلى الجامعة بذلك الزي التنكري يعني الموت، ولهذا رفضت وبكيت

وصرخت، وفي الأخير أضربت عن الطعام، لكنني فشلت...

فكل سبل المقاومة لديّ كانت هشّة أمام الصقيع الذي يغطي قلب والدي، ولامبالاة أفراد العائلة.

فما زلت أذكر نبرة صوته الغاضب عبر الهاتف وهو يقول لي بتأنّي المقتنع بقراره:

- إبقي في البيت إذاً، أو موتي...

لكن... صعْب عليّ أن أموت، وعمر والدتي يلاحقني إلى كل الزوايا. لم أرَ ابتسامتها إلّا نادراً، لا يهمّها فرح أو عيد أو مناسبة من تلك المناسبات التي تشتهي النسوة حضورها لتغيير فستان في كل ساعة، أو إطلاق سراح النميمة على ألسنتهن، أو المزاح أو إفشاء أسرارهن الحميمة.

اختلفت عنهن دائماً بعبوسها وذبولها.

ويخيّل إليّ أنها لا يمكن أن تعيش إلّا إذا تكرّرت بحزنها ذاك، وبانهماكاتها اليومية التي لا تنتهي، وبجلستها المسائية أمام أي إنتاج مصري في التلفزيون تتحجّج بمشاهده الحزينة لتبكي حزنها هي.

كانت ركاماً من الحزن والسأم.

سيئة الحظ على كل حال وإلّا لما تزوّجت رجلاً فقط

ليحبلها مرة كل سنتين دون أن يعيش أكثر من أيام معدودة كل سنة معها. من هنا بدأت نقاط الاختلاف بيني وبين توفيق.

كنتُ ثمرة واجب، وكان ثمرة حب.

ولهذا لم تكن اهتماماتي غير نقيض ما يفكر فيه في غالب الأحيان. كنت بحاجة إلى كثير من الحب، وكان بحاجة إلى أجوبة عن قضاياه الفكرية؛ كنا نختلف، وذاك الاختلاف أخافني دائماً من دخول التجربة معه... وربما كان لحزن والدتي دخل في ذلك...

هي التي لم تكن بمستوى غراميات والدي...

والدي كان رجلاً وسيماً، وفي نظري كان وسيماً جداً، وكثيراً ما كانت تبلغنا أخبار غرامياته عن طريق بعض المغتربين، ولا أذكر أن والدتي كان يهزها الأمر، إذ كان حزنها غير متعلق بخياناته المتكررة، وإنما بذلك الوعد القديم الذي حنثه يوم تزوّجها ليعلّقها على ورقة واجب، لم تكن تعني له أكثر من ورقة صالحة لمسح حذائه... أو أفواه المجتمع!

مؤلم جداً أن تمنح امرأة عذريتها لرجل أحب...

لا... بل لفضل على ظهرها نصف عاهرات فرنسا والجزائر.

ما زال يزورنا مرة في السنة، لشهر أو شهرين، ويتحول البيت أثناء زيارته إلى ما يشبه محطة مسافرين، أفواج تأتي، وأفواج تذهب، ونحن الصبايا نتناوب على تحضير القهوة، وتقديمها للضيوف، وهكذا تظل المأدبة قائمة عندنا حتى يغادر.

والحقيقة. . .

لا أحد من كل ضيوفه يحبه لشخصه، فوالدي لم يكن أكثر من كومة «دوفيز»، أو رجل لمصالحهم، كان له بريق «الفرنك الفرنسي» وهذا ما يزيد حرماننا منه، لدرجة صرنا نتعامل معه بحياء وخجل كأنه أحد الغرباء.

نحن الصبايا، نشعر بذلك الحياء أكثر.

يسألنا: ـ ما أخباركن يا صبايا؟

نضحك، نتبادل النظرات، نتكمش ببعضنا بعضاً أحياناً ونهرب من عينيه،

«ما أخبارنا؟»

لا أخبار لدينا أو. . .

يصعب علينا أن نفتح حديثاً معه. نجهل تماماً كيف تُحدِّث الفتيات آباءهن عن أخبارهن.

يسألنا مرة أخرى:

ـ هل تحتجن إلى شيء؟

عجيب!!

كل ما نحتاج إليه نطلبه من والدتي، وأحياناً تلبّي لنا الحاجة قبل طلبها.

نجيبه: لا شيء.

يصدّقنا، فيذهب. ونتغمس في ضحكنا من جديد.

كان بعيداً عنا، ولهذا تفاجأت حين اقتحم حياتي فجأة، «ترتدي الحجاب، وتذهب إلى الجامعة».

كيف أرتديه؟

وتلك الأشياء الجميلة التي كان يحضرها لي، كيف أتركها في خزانتي، وأذهب إلى الجامعة بجلباب ومنديل مثل جدتي؟ من هنا بدأت أسئلتي أنا.

انطلقت من قطعة القماش تلك التي لم تعد تعني لي فقط التنكّر الذي يوهم الأعمام أنني سأحمل سجني معي إلى الجامعة، بل صارت تعني لي إثبات مزيد من الفروق بيني وبين الآخر، إدخالي قليلاً دائرة الرؤية الضبابية؛ «كوني لكن لا تظهري». كتلك الصناديق القديمة التي كانت تحرص جدتي على تغطيتها بأغطية أوهمتنا طويلاً أنها مجرد طاولات فيما هي تحوي أشياءها الثمينة.

تساءلت أيضاً، لماذا لم يهتم أحد برسوب أختيّ «زيتونة» و«وداد» أم أن رسوبهما هو الحدث الطبيعي

بالنسبة إلى رجال العائلة، ولهذا لم يفرض عليهما الحجاب.

«زيتونة» نفسها، التي كنت أظن أن خبرتها في الحياة بحكم مستوى تعليمها المتوسط لا تساوي شيئاً، فاجأتني برأيها:

ـ الحجاب عندنا غير مرتبط بسن البلوغ يا لويزا، إنه مرتبط بشيئين: بقناعة الفتاة نفسها وهذا شيء لا يضر، أو... بمستوى ذكائها. إذا ما شعر الأهل أنها ستخرج من دائرتهم فرضوه عليها لإرباكها لا غير...

كان لها حق...

فنجاحي في البكالوريا جمع شمل العائلة من جديد، إذ عُقدت الاجتماعات، وأثيرت النقاشات، حتى خفت من تطور الأمور إلى تنظيم مظاهرات في الطريق للتنديد بذلك النجاح، لقد كان الشيء الذي أخافهم مثيراً للضحك، وهو احتمال إقامة علاقة مع الشبان، ولهذا سرعان ما أبلغوا والدي الخبر ناسجين له ما تسنّى لهم من الحكايات المفزعة حول بنات الجامعة، وكان لهم أن قلبوا حياتي رأساً على عقب...

كانت الجامعة حلماً كبيراً نما في داخلي، ولم يكن من السهل أن أزيل ذلك الحلم من خلايا الكيان لمجرد التحدي، ولهذا رضخت...

في المرآة،

واجهتني نفسي وكأنها شخص آخر.

فتاة ككل أولئك الفتيات المتشابهات، قليلة هي الأشياء التي توحي بأنني أنا.

أقف أمام نفسي بوجهين

وجه المرآة، صامت، كتوم، لم أفهم من ملامحه شيئاً. وجهي الذي أشعر به لم يعد يستوعبني بتلك الكذبة التي أرتدي.

لم أعد أفهم مَن تكون التي تقف أمامي، قد تكون الفتاة الأكثر قبولاً لدى الآخرين، لا يليق بها ذاك الطموح الفاجر الذي أخفيه بين الضلوع. كان جنوني في الحقيقة ينام تحت ذلك المنديل بتأثير صدمة التغيير المفاجىء، وقد سافرت إلى باتنة كأنما أسافر إلى حتفي وليس إلى حلمي، وكنت أحسب تقلص العمر منذ تلك الدقائق الأولى...

أذكر ذلك جيداً:

في الرابعة تماماً جاءت يد والدتي باردة مقبلة على جبيني الذي تزاحم فيه القلق، تطرد عني ما تبقى من النوم الذي حظيت به.

قالت لي:

ـ حان الوقت،

وكأنها قالت لي حانت نهاية العمر، أو نهاية العالم، أو أي شيء يشبه انتهاء الإنسان...

قمت والرجفة تسلسل قلبي وكياني. تحركت نحو الحمام وخفت أن يواجهني وجهي في المرآة بكل تلك الاحتمالات السيئة التي يمكن أن تكون حظي.

لم أرفع عيني نحو المرآة، غسلت وجهي، وحضرت نفسي وكأنني أتعامل مع شخص آخر...

في الرابعة والربع...

كنت أنا، المحجبة، التي يفترض أن تكون شخصاً هيناً طيّعاً لا يحسن غير الرضوخ لأنه لا يملك غير ضعفه كوسيلة للعيش.

كنت متأهبة في ذلك الفجر البارد للسفر مع حبيب ابن عمي مصطفى، وهو طالب في كلية الصيدلة بقسنطينة.

أثناء الطريق لم نتبادل الكلام، شعرت بالبرد، فتكمشت

بشبابي وقد هاجمتني أفكاري الجديدة تلك: إني ذاهبة إلى قلعة أحلامي بحقائب فارغة، تاركة أمتعة ذاك الحلم في زوايا البيت على المنضدة التي طالما آنستها بسهر الليالي، مجبورة على تقبلي كلية الطب قدراً... بدل كل الاقتراحات التي عرضتها على الجميع فقد أردت الصحافة كاقتراح أخير عارضه خالي لأن معهد الإعلام في العاصمة، والوضع الأمني للبلد لم يكن مناسباً للتنقلات الطويلة خصوصاً بالنسبة إلى فتاة...

ولهذا سافرت كما لو أنني أرسل شخصاً آخر يحل مكاني في كل شيء. بل شعرت أنني مسافرة نحو الكابوس، وأن مزرعة أحلامي الوردية التي عنيت بها طويلاً هبّت عليها عاصفة برد قوية، فلم يبقَ منها غير أماكن الذكرى وأعواد الموت.

إنها الرابعة والدقيقة الثلاثون.

شعرت فعلاً أن الزمن يتحرّك نحو الصفر، والعمر أوشكت عقاربه أن تتوقف.

إنها السابعة عشرة وثلاثة أشهر وبضعة أيام ولحظات، وفجر بارد لا يهتم كثيراً بما حلّ بي...

كان حبيب يضحك بين الفينة والأخرى عن حديث بعض الفلاحين الذين كانت أصواتهم عالية مثل كل أهل

الجبال، أما تعليقات الطلبة فبقدر ما كانت مضحكة بقدر ما كانت بليغة ولها معانٍ. قال حبيب محاولاً إدماجي بالجو:

ـ غداً. . . ستسألين نفسك مثلي تماماً، لماذا يسافر هؤلاء الفلاحون إلى باتنة، مبكرين، مزاحمين الطلبة على أماكن الجلوس فيقضي معظم الطلبة ستين كيلومتراً مسافة الطريق وقوفاً؟ ما الأشغال المهمة التي تجعلهم ينهضون باكراً، وينافسون الطلبة خصوصاً على هذه الحافلة، ولن تجدي جواباً، لأنك ستحبين حكاياهم الساذجة، وستدمنيها حدَّ نسيان سؤالك الأول، وتشتاقينها في بعض الأحيان.

نظرت إليه، ثم نظرت إلى ساعتي.

إنها الخامسة والدقيقة الثلاثون، العمر يتقلّص نحو نهايته.

غريب جداً أنّ الحظ لم يحالفني في البكاء هذه المرة. . . قلت له:

ـ أريد أن أبكي.

وقد استغربت كيف فهمني بتلك السرعة، قال:

ـ لماذا تهولين الأمور، أنظري إلى طالبات الجامعة، قلة منهن لا يرتدين الحجاب، والبقية بالحجاب. . .

قاطعته:

ما يزعجني هو أنني أرتديه خضوعاً لقرارهم، دون أي إيمان به، إني أتنكر من أجل أن يدعني والدك، وباقي رجال العائلة بسلام، إنني لا أرضي الله بهذا، ولكنني أرضي كائنات لا تفوقني ذكاء.

ـ إنك تخطئين، تذكري أنني رجل من رجال العائلة، ولا يهمّني نوع اللباس الذي ترتدين، بالعكس يهمّني أن تكملي دراستك، وها أنا أرافقك من أجل التسجيلات...

سكت قليلاً ثم غمزني قائلاً:

ـ هيا ابتسمي إن الله غفور رحيم.

كان بودّي التوغل معه في نقاش طويل لكن رغبتي في الكلام كانت ضئيلة جداً، كنت بحاجة إلى التحاور مع نفسي ولهذا ظلّ الكلام يتدفق في رأسي كمطر شتوي مجنون، حجب عني ضجيج الحافلة، وطول الطريق، وحين توقفت الحافلة، توقف مطري.

لقد بلغنا باتنة، ووجدتني أتحرك بحجابي مع حبيب مثل امرأة قديمة تتبع زوجها إلى مكان تجهله.

واجهني بناء عليه اسم كبير «أسحار».

سألته: ما أسحار هذه؟

أجاب: إنها أروقة مثل «سوق الفلاح».

قلت له:

ـ كيف يخترع الجزائريون أسماء كهذه لمحال تجارية؟ «أسحارة» اسم يوحي بمكان رومانسي لا صلة له بالزيت والصابون وما إلى ذلك...

ضحك قائلاً:

ـ هذا ما يوحيه لك الاسم، ذات يوم قرأه فلاح بصعوبة، أسحّارْ، وسألني: آشْ مَنّي يِلّ أوسحّارْ ذايْ (يا بني هل يوجد ساحر هنا؟).

خلفيته البربرية جعلته يقرأ الكلمة هكذا، أما أنتِ، فتمثلين الجيل الذي خضع للتعريب. هو ما زال «ذ شاوي» رغم استطاعته قراءة اللغة العربية، أنت على رأي ابن خلدون «إذا عُرِّبت خربت» نَصَبْتِ خيمة الرومانسية العربية في رأسك على أنقاض ما تبقى من بربريتك.

قلت له وشيء من الغضب انتابني:

ـ أنا لا يهمني الماضي يا حبيب، أنا ابنة اليوم، والبربرية لا تعني لي أكثر من انتماء عرقي لا علاقة له بأفكاري وانتمائي الوطني والديني و...

قاطعني:

ـ وماذا يا لويزا... لاحظي أنه حتى الانتماء لا يريدونه أنثى حسب تعبيرك هذا، وحين تكبرين قليلاً ستفهمين أنه حتى هذا الانتماء سيحاولون اقتلاعه.

قلت له:

ـ ومَن يحاول اقتلاعه؟

قال:

ـ العرب.

قلت:

ـ كلنا مسلمون يا حبيب، وجزائريون، والباقي لا يهمّني.

قال ساخراً:

ـ مسلمون وجزائريون... يا مسكينة... مسلمون وجزائريون «قوليها في الحمّام». إننا نسخر من تاريخنا حتى في الكتب المدرسية. هل تعرفين من هي الكاهنة؟

قلت له:

ـ حبيب... مَن لا يعرف ذلك. إنها ملكة البربر في فترة الفتوحات. قال وهو يواصل سخريته:

ـ هيه يا لألة (نعم سيدتي) فتوحات؟ فكري قليلاً... شغّلي مخك... الكاهنة اسم بربري؟

قلت:

ـ ربما لُقّبت بالكاهنة.

قال وكأنه استحكم على نقطة ضعفي:

ـ لُقّبت... يعطيك الصّحة... ألم يقل الله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؟ لُقّبت فضاع اسمها الحقيقي من التاريخ،

نحن شعب لنا تاريخ، لنا كيان، لنا جذور، لكن أين مكاننا في التاريخ... خذي مثالاً آخر «كُسيلة» أليس أميراً بربرياً؟

أجبته:

ـ بلى.

قال:

ـ ماذا يعني لك «كُسيلة»... ماذا يعني اسمه في القاموس البربري، أجيبي؟

قلت:

ـ لا أدري، ربما كلمة قديمة جداً لا نعرف لها معنى؟

قال:

ـ لا قديمة... لا عمّار بُزوزو... «كُسَيْلَة» تصغير سخيف أطلقه «عقبة» على أمير البربر «أكْسَلْ» و«اكسل» مفهومة تعني أسداً. أهذه هي الفتوحات؟ والنبي الكريم عليه الصلاة والسلام قال: «ارحموا عزيز قوم ذلّ»... تاريخ العرب كله كذب في كذب «يا لألّة»... لقد كتبوا التاريخ بغرورهم... ونحن متمسكون بالتعريب، أليقي يا ابنة عمي، التعريب لا يعني تعريب اللسان في هذا القرار، إنما توسيع «الخارطة العربية».

كان قد تعاطف معي، ولهذا أسهب في فتح حديث من

كل ملاحظة عسى أن يبعد عني كآبتي، لكني بسذاجة طفلة صغيرة بدأت أتعلق بحديثه. كنت كقشة تودّ النجاة من حريق فمالت نحو دفئه...

ويكفي أنّ باتنة استقبلتنا ماطرة، غير مبالية، رمادية وعابسة ترمقنا بمبانيها الفاخرة بقسوة لا تليق بتاريخها الكبير...

وقد أمضينا النهار كله في إتمام إجراءات التسجيل في كلية الطب، ثم الحصول على غرفة بحي اختصر اسمه بثلاثة أحرف لاتينية «CFA» لأنه في الحقيقة لم يكن حياً مخصصاً لطلاب الجامعة، ولكنه مدرسة للتكوين المهني حُوّلت للحاجة إلى معهد للطب البيطري وحي جامعي للطالبات...

أصرّت العجوز على الجلوس أرضاً في الرواق، أما بائع التذاكر فقد طار صوابه، قال لها:

ـ يا نانّا أكَرْ سْوكَرْواز أغ يْرِدَانْ أدْ عدّانْ.

(يا جدّة، انهضي من الرواق واتركي الناس تمر).

لم تقبل، أمسكت برأسها وهي تجلس القرفصاء وقالت له:

ـ آتْنَ هْرّلاَدِي إينِيَّاسْ أيفِيلْ.

(يا أبنائي، قولوا له بأن يتركني وشأني).

وأغلقت كل سبل التفاهم بينها وبين الشاب الذي كانت ملابسه مثيرة للضحك لضيقها على «جثته» الضخمة: احتقن وجهه ولم يعد يمتلك نفسه، فيما تدخّل السائق ليحل الإشكال ولم يحله. أما الركاب فقد تجاهل بعضهم ما يحدث كالعادة، وبعضهم ظلّ يتابع الموقف من أجل الضحك.

وحين لم يصل الثلاثة إلى حل، قام شابان من طلاب الجامعة وحملاها بالقوة، ووضعاها في آخر الرواق، وظلّت تشتم وتحدّث نفسها دون ملل، لكن دعواتها السيئة تلك أثارت السائق عدة مرات، ردّدت غير مرة:

ـ يا ربي أضْنْقْرانْ الكَارْأيا... يا ربّي ضَرْبِيثْ...

(يا رب، لتنقلب هذه الحافلة... اقلبها يا رب).

لكن الطلاب وأغلب الركاب لم يكترثوا لما كانت تردد، بل أحبوا كل ما كانت تقول، لأنها كانت مثيرة للضحك.

أنا الأخرى تفاعلت مع ذلك الجو، فاختلف طريق العودة بل ضحكت، لأنّ العالم اتسع قليلاً بالنسبة إليّ، حين رأيت أولئك الناس كيف يأخذون الدنيا من طرفها اللين.

لحظتها...

رأيت حبيباً كما لو أنني أراه لأول مرة، وتناسيت تماماً، أنه ابن العم الذي أحار في كل مرة يزورنا فيها كيف أسلّم عليه، أعلى الكتف حسب طريقتنا التقليدية أم على الخدين على طريقة أبناء المدن، أم أصافحه؟ وكان حتماً يحار الحيرة ذاتها، فقد كُنّا نرتبك الارتباك نفسه، فتتلامس يدانا على قلق أو يتقاطع رأسانا لتقبيل الكتفين بكثير من الخجل والحياء. أما الحديث فما كان يجمعنا غير تلك التحية المقتضبة، وتلك الجمل المختصرة عن أحوال الدراسة لا غير.

في ذلك المساء...

ونحن نتمشى نحو البيت، شعرت أن شقاره يغني،

الشارع، الشعور الذي حرّك أقلام القلب، وجعلها تسكب الألوان بعبثية مذهلة على بياض أوحى بتقاطيع حب. لم أفهم ما الذي حدث بالضبط...

فقبل أربع وعشرين ساعة كنت أشعر أن الموت يترصدني من كل الجهات... فإذا بي أعود مع حبيب وقد نسيت أغلب الهم، ثم غير ذلك كان حضور حبيب يهبّ مثل نسيم يفوح عطراً على مواطن مشاعري كلها.

كان الليل هادئاً في بيتنا حين استسلمت للنوم.

وحين صحوت وجدتني أخرج من جسدي المتعب بقليل من الهموم. حجابي كان ينام على الأرض إلى جانب السرير مثل قطة ارتخت وهي تنام قرب مدفأة، وقد تخيلت أنني لن أرتديه مرة أخرى ولهذا دعسته بقدمي وأنا أنزل من سريري متوجهة نحو الحمّام، محاولة ألا تراودني أسئلتي المفزعة تلك، بالتفكير في حبيب، تلك الأسئلة التي قضّت مضجعي منذ أصدر والدي قرار ارتدائي الحجاب، تذكرت غرامياتي الصغيرة مع محمود...

محمود الذي حرّك عواطفي قليلاً، حين كنت أتحدى معه أستاذ التربية الإسلامية فنجلس معاً، وكنّا نغشّ معاً في امتحانات التاريخ والجغرافيا والفلسفة إذْ كان يحفظ نصف الدروس وكنت أحفظ النصف الثاني، وننقذ بعضنا بعضاً في الأسئلة الصعبة...

وكان شيء من الثنين يشدّني فيه، تمرده أو ذكاؤه؛ وأحياناً يخطر ببالي أنني أحببته لأنه يشبهني. كنّا الأقوى في الصف.

كان أقوى ذكر، وكنت أقوى أنثى، وقد جمعتنا تلك الدائرة الصغيرة الضيقة بإحساس التفوق.

لكن ذلك اليوم لم يكن عادياً، إذ إن دائرة حبيب اقتحمت مجالي، وجدتني محمية من طرفه في البداية، ثم منبهرة بأحاديثه التي كانت تشبه قصص «آرلوكان»، بدأت بأحاديث عن الجامعة وحياة الطلاب وانتهت بأقاصيص الحب التي تزخر بها دائرة الفضاء الجامعي. . .

كان قد توصّل إلى إحداث ما أنساني ذاتي بعد أن غرس راياته على أراضيَّ خلال سفرنا معاً أسبوعياً، ثم تأقلمت مع حجابي، وبدأت المدينة تتوغّل إلى داخلي بطقوسها الخاصة، صرت أشمّ صباحها الجاف، وأجدُ في سمائها عطراً سرياً متميزاً، وفي نهاراتها يجتمع البؤس واللامبالاة بالثراء الزاحف على الأرصفة.

أحببت غرفتي المطلّة على «المرقوب» ـ يا للأسماء الغريبة التي يخترعها الطلبة، «المرقوب» يعني الهضبة في اللغة، ولم يكن له أي علاقة بكلية الحقوق والأدب، لكنه

طغى بحضوره في القاموس الطلابي، وصار الاسم المعترف به للكلية...

أمسيات «العرقوب» زاخرة بالحب، وكثيراً ما كنت أجلس أمام النافذة مثل غيري لإرواء فضولي ومتابعة مشاهد الحب على الطبيعة.

غير ذلك...

كان قد احتلني حبيب كفكرة لعدة أسابيع تشبه الحجز تحت ذمة التحقيق، بعدما تورطت معه في شباك تلك السخافات التي دون مراعاة مني لأبعادها، وجدتها تلتصق بتاريخي كندبة بشعة في الوجه، وتصبح عاهة مستديمة في ذاكرتي لا يمكن استئصالها...

حبيب كان يعرف بالضبط ما الذي يجعل طفلة مثلي تقفز فرحاً، ليخدع مشاعري بتلك المفردات التي تكتسح بسرعة مساحات القحط الممتدة في داخلي.

كان يعرف كيف يتسرب إلى مواقع البرد في دمي، ويضرم فيها النار، لدرجة حسبته فيها عفريتاً أو جنياً غفلت عن رؤيته كل تلك السنين.

كان يعرف أيضاً كل السبل المؤدية إلى ضعفي المستجد به، وأظنني أخطأت حين فتحت له كل أبوابي، أخطأت حين تصورته أملاً لنجاتي من بيت يغتصب حرمته

الأعمام، ويملأ، حزن أمي والشائعات عن والدي...
والذي كان يؤلمني جداً هو أنني حسبته مصدر الدفء الذي يلغي ذاك الجدار الذي بناه المجتمع بيني وبين والديّ أو بيني كجيل وبين الجيل الذي اختبر الحياة.

«قومٌ بَحْرك» هذا ما يفعله كل جيل بمفرده، عندئذ، يصارع الموج حتى تنهكه الأخطاء، ليقال إن التاريخ يعيد نفسه. اصطادني حبيب بتلك الكلمات الرقيقة التي تغرّد بها:

«برناسيرا» كان يقول لي حين نفترق كل مساء نعود فيه معاً إلى أريس، على أمل لقاء جديد في بداية الأسبوع، يُخيل إليّ أنه يتأخر كثيراً حتى يُصبح الشوق كائناً لا يحتمل البقاء في صدري فأحببته...

وأحببت حبه ذلك للحرية، والاستقلال، والظهور، والانطلاق والتبعثر في السماء، يحضرني ما قلناه ذات يوم:

ـ اشتقت لرؤية شعرك تداعبه النسمات.

ـ أنت مجنون.

ـ دعيني أراه قليلاً ولا تمنعيني.

ـ هنا؟ في الشارع، أمام الناس؟

ـ دعيني أراه دائماً إذن.

لا أدري لماذا ظننت أن هذه دعوة صريحة لأشاركه الحياة، سألته وقلبي يتقفّى آثار كلماتي:

ـ هل تحب فعلاً أن تراه دائماً؟

ـ أريده أن يكون لي، أن أستحمّ به كل مساء وأتركه يكتب الحب على جسدي. . .

أظنه قد اعترف بما تحويه مشاعره.

وقد ظننته أيضاً أنه قد بدأ يخطط للحب على أمد طويل حين قال لي ذات يوم وهو يطوقني: Je veux t'aimer, Je veux te cherir

(أريد أن أحبك)

. . . لكن. . .

التاريخ لا يعثر إلّا هنا عند أقدامنا.

وهنا فقط، الطرق كلها تؤدي إلى الهاوية، «روما ليست لنا، كما يقول خالي، وما يشبه روما شيء لا يمكننا أن نقتنيه لأننا نسلك دروب الشك».

هنا فقط نصل إلى قبورنا، ونصل زحفاً بعد أن تلعب حفر الطريق بأجسادنا.

كنت أظن حبيباً فهمني، واستوعب أسباب بكائي على ذراعيه، وقد ترغمت أن أحضانه تلك، إنما لاحتوائي، ومسح آثار اكتئابي.

بل وصدقت شفتيه اللتين لامستا جبيني بكلمة حب، وآمنت به رجلاً سيغيّر واقعي.

عدت في ذلك المساء الذي أذكره جيداً خفيفة كسحابة صيف، وبمجرد أن فتحت لي زميلتي باب الغرفة التي نقتسمها معاً حتى احتضنتها وقبّلتها، ورقصت في ربوع الغرفة مثل المجنونة ثم ارتميت على سريري مسافرة في حلمي ذاك.

لكني كنت أحلم بسرعة تفوق المعتاد والتي دائماً ما تكون سبباً في تلك الحوادث المميتة للمشاعر.

رحت أحكي لسماح ما دار بيني وبين حبيب، وصفته لها، وهو يحتجزني بذراعيه، ويطل عليّ من علوّ بأنفاسه، وعينيه اللتين خلتهما تفهماني... وكيف حدثته عن تعبي من شرود والدتي، من حزنها، من عجزي وعجز أخوتي من تحريك حجر الحزن من على كتفيها، ومن قرفي من بُعد والدي، ومن اتهاماته لنا جميعاً بشتى التهم التي يخترعها بعض الأقرباء والمعارف كوسيلة إضافية للتقرّب منه، موهمين إياه بخوفهم الزائد على مستقبلنا... شكوت له شكّه الدائم فينا، إذ يكفي أنه منذ بدأت الدراسة، اتصل أكثر من ثلاث مرات مهدداً أنه كلّف من يتجسس عليّ وأنّ أخباري تصله كاملة.

أخبرت حبيباً بتلك الخيبة التي أشعر بها، أمام أب كثيراً ما تمنيت أن يكون حنوناً، قريباً مني، يزرع الثقة فينا بدل ذلك الفتور والريبة في علاقته معنا.

حدثته عن أحلامي، عن بيت سعيد أرغب فيه معه، عن أطفال أحبهم وأعلمهم القوة بدل الضعف، والشجاعة بدل الخوف.

كنت أظنني أتحدث عن بطل فيما سماح كانت تسمعني بقليل من الاهتمام فقد كان تركيزها على ركوة القهوة وإبريق الحليب على النار، وحين أنهت تحضيرهما، ضحكت، وتقدمت مني بهدوء ثم قالت:

ـ إنك لا تعرفين الرجال، ولا تعرفين شيئاً عن الدنيا.

سألتها مستغربة:

ـ عمّ تتحدثين؟

أجابت وهي تقدم لي كوب الحليب الساخن مع قطعة خبز مدهونة بالزبدة:

ـ عن غبائك.

قاطعتها:

ـ سماح!

فقاطعتني هي الأخرى:

ـ سماح تعرف أكثر منك، أنظري إلى هذا العالم، إلى

هذا الكون، إنه مبني على نظام، وهذا النظام إذا حدث فيه خلل صغير، حدثت الكارثة. أنظري إلى النجوم تنعم بضوئها الذي يصلنا منذ آلاف السنين دون أن نفكّر. إننا ننظر إلى الماضي، ويبدو الأمر صعب التصديق، وربما ما يخطر ببالنا هو أنّ هذه النجوم مثل مصابيح الكهرباء التي في بيوتنا تنطفىء في النهار، وفي المساء تمرّ عليها كائنات طائرة تكبس على أزرارها فتضيئها الواحد تلو الآخر.

لم أفهم ما كانت تقوله، أو ما تقصده، هززت رأسي قائلة:

ـ أنا أحدثك عن حبيب، وأنت تلقين عليّ محاضرة عن النجوم. فقالت:

ـ لأن الناس كالنجوم يا لويزا، كالكائنات التي تعجّ بها الأرض، كالفصول، ككل ما تزخر به الطبيعة، إننا جزء من هذا الكون، وكل ما نختلف فيه عن بعضنا بعضاً هو أشكالنا وأعمارنا ولغة الخطاب. نولد، نكبر، نبتهج بالحياة، وحين نشيخ نخاف من الموت، ولكننا نموت...

ـ وما علاقتي أنا وحبيب بهذه التفصيلات؟ سألتها.

أجابت بهدوئها الغريب:

ـ لأنكما جزء من هذه التفصيلات، أنت استمرارية

لأمك، أمك استمرارية لجدتك، وهكذا هي سلسلة الإنسان مثل ضوء النجوم. تأكدي أنّ حياتك، مهما كنت دقيقة في اختيار شريك عمرك متشبه حياة أمك...

ـ أنت غير معقولة يا سماح، أهذا كل ما أوحاهُ لك ما حدث بيننا؟

قالت:

ـ وما الذي حدث بينكما؟ أصغى إليك، وقبّلك، وقال لك: «أنا لست مثل الآخرين»... حين خلق اللّه آدم وجعله سيداً في الجنة ضجر لأنه وحيد، فخلق له حواء من ضلعه، فسُرّ بها أول الأمر، وبعد فترة ملّ منها، فقال لربه: «خذها عني»، ففعل اللّه ما طلب، لكنه أرادها بعد غياب، فقال لربه: «أعدها إليّ» فأعادها، وظلّ على هذه الحال ثلاث مرات، وفي آخر مرة حذّره اللّه من هذه اللعبة، فخيّره بين أن تظل معه إلى الأبد، أو تختفي من حياته إلى الأبد، فطلب أن تظل، وهذا ما حصل لكن هذا لا يعني أنّ حواء ظلت سعيدة معه. هذا آدم الذي سجدت له الملائكة فما بالك بحبيب ابن عمك!

ـ أنت مخيفة يا سماح.

ـ أنا واقعية.

ـ لكنه صادق، ومن دمي، وأشعر أنه استوعب معاناتي.

سخرت مني قائلة:

ـ استرعب؟... يا «عبيطة»، إنه يكتشفك لا غير، وحين يزور خباياك، ويعرف كل شيء، لن تصبحي مثيرة بالنسبة له، سيستيقظ «عِرْقُ» والده فيه، وسترين عمك فيه يحاكمك على كل تلك التصرفات، اسمعي كلامي «اللّي فاتَكْ بْلِيلة فاتك بحيلة».

كانت سماح تكبرني بأربع سنوات، وعاشت أكثر من تجربة حب كلها انتهت بالفشل.

هذا قدر ربما، لكنه شيء لا يُنسى ولا يوضع جانباً حين تحضر تجارب جديدة.

قالت لي: «الطالبة الجامعية في الجزائر لا تمثّل أكثر من امرأة مخيفة» وكانت تقصد أكثر من معنى وحقيقة.

أنا... الصبية المعلّقة بأحلامي، ظننتني أعرف الحياة بشهادة البكالوريا وشبه تجربتي حب لما تتجاوز مرحلة تحضير المقادير لطبخة ستحترق...

الواقع...

إنني وضعت قدمي على موقد من الجمر، دون أن أعرف كيف بإمكاني تخطيه أو الخروج منه بحروق قابلة للشفاء.

كنت أظن حبيباً رجلاً لا يمكن لكلامه أن يختلف من

الرصاصة التي تغادر موضعها، فإذا به لم يصمد غير فقاقيع التهمها الهواء. لقد أردت لعلاقتنا أن تكون متينة وصادقة، وأشد من غضب العواصف التي قد تأتي من القيل والقال.

أردت كطفلة تخاف أن تؤخذ منها هديتها، أن أسابق الريح، فجلست إلى أوراقي، وتصرّفت كما يجب أن تتصرّف فتاة ترغب في الحياة دون أقنعة أو مزيد من التعديلات، كتبت رسالة إلى والدي... لأول مرة:

Cher Papa

Je ne sais comment commencer, mais

لا أدري كيف أبدأ لكن

en ce moment je ne me sens proche que de toi

في هذه اللحظة، لا أشعر بنفسي قريبة إلاّ منك

Je veux ton conseil, à propos de ma relation

أريد نصيحتك فيما يخص علاقتي مع

avec mon cousin Habib et qui je pense sera

ابن عمي حبيب، والتي أظن أنها ستكون دائمة

durable. J'aimerais bien que les choses

أتمنى أن تكون الأمور واضحة

soient claires entre nous et je souhaiterais

بيتنا، وأرجو

que mes nouvelles ne te parviennent pas

أن لا تصلك أخباري من غيري

de quelqu'un d'autre, car je crains qu'elles

إذ أخاف أن

soient mal comprises

تُفهم خطأً

s'il te plait j'attends ta réponse

من فضلك، أنا في انتظار إجابتك

Ta fille Luisa

ابنتك لويزا

تحولت السعادة بعد إنهائي كتابة الرسالة إلى فرس جموح هزت قفص الصدر، فلم أستطع النوم بعدها.

سررت لأني استطعت أن أكتب رسالة بالفرنسية، اللغة التي لا أتقنها، ولا يتقن والدي غيرها، ولكنها أيضاً اللغة التي يمكنني أن أودع فيها كل ما يخجلني دون أن أشعر فعلاً بالخجل... بكتابتي الرسالة شعرت أنني ألقيت الكثير من المسافة بيني وبين والدي، ولهذا بقيت أنتظر قدوم الصباح لأرسلها خوفاً من أن أغير رأيي إذا نمت وصحوت على الرغم من أني فكرت في ردة فعل والدي

التي قد تأتي على عكس ما أتخيل. قلت لنفسي قد يغضب، ثم قلت ليغضب، لكنني لن أكذب عليه وسأظل على صراحتي حتى ينكسر جدار الجليد الذي يفصلنا وهذا أبسط ما لديّ عنده من حقوق، فطالما أردت أباً يرشدني بحب، يخاف عليّ لا منّي ومن وجودي، يسمعني أنا، لا أن يلتقط أخباري من هنا وهناك، كأنني إحدى بنات جيرانه. أردت أن يعرفني، لا أن يتخيلني في صور النساء اللواتي عاشرهن، أن يسألني عما ترغب فيه نفسي من مشاعر، لا ما أرغب فيه من أشياء يملأ بها خزانتي ثم يأمرني أن أغطيها بحجاب...

ربما...

حلمت أكثر مما يجب بمصير سرّي يقودني إلى الطيبة التي حتماً لها مخبأ ما في قلبه، وخمنت أن اللغة التي تخونني حين يكون الخطاب مباشراً بيننا قد تسعفني حين تصله في هدوء رسالة.

ولهذا تحمّست حتى شعرت أنني أتمزّق من ذلك الشعور الذي كان يملؤني فرحاً وخوفاً معاً.

ولهذا أيضاً ترددت وأنا أقف في ذلك الصباح الباكر أمام صندوق البريد المركزي، بين ما قد يحدث مخالفاً لرغبتي، وما قد يحدث كما أريد.

أمسكت بالرسالة كأنما أمسك بطائر سيفلت مني، وحين خفت أن أراجع رميتها بسرعة في الصندوق وأدرت له ظهري. كان مصيري قد تقرّر بعدها، حتى وإن أدرت له ظهري، ولم يكن بإمكاني أن أسابق القدر.

فبعد يومين التقيت بحبيب، وقد كان كلانا يخبئ مفاجأة للثاني؛ أما أنا فقد كان الشوق يملأني وخبر الرسالة ظننته مفاجأة جميلة له...

وما إن بلغنا مخبأنا المعتاد، حتى طوّقته وغبت في رائحة عنقه بين الحلم والشهوة، ووددت لو رفع رأسي قليلاً إليه، وناولني أسرار ذاك الجسد الدافئ عبر شفتيه، لكنه تحدث كثيراً... كثيراً جداً دون أن أستوعب شيئاً، وحين استوعبت لم أعد أرى حبيباً: كانت عيناي قد تأهّبتا للبكاء، وصرت أسمع صدى في رأسي «سيستيقظ عزّق والده، وسترين عمّك فيه يحاكمك على كل تلك الاختراقات».

حين بدأ يحاكمني فعلاً:

ـ أفكر دائماً في اندفاعك يا لويزا، منذ شهرين كنت تبكين من ثقل الحجاب، واليوم تجدين اللذة في الاختلاء معي تحت أشجار الجامعة مستحسنة سترة الثوب لهويتك، وفيما والدك يفكر أنك تدرسين، ها أنت تخونين ثقته بشكوى أفراد عائلتك وتقبيلي.

قلت: ـ لا، بصوت عالٍ ولم أستطع التعقيب على كلامه فيما واصل هو الكلام:

ـ أريد أن أعرف كيف تملكين الجرأة على فعل ذلك، ما أنا متيقن منه هو أنك...

مصدومة كنت، وأنا أتلقى النار في رأسي.

لم أقوَ على الوقوف، أو على الكلام، أو على الصراخ، أو على إسكاته، أو على الهروب منه، كأنما وجودي في ذلك الموقف، ودخولي في علاقة معه منذ البداية إنما لسماع ما قاله وترسيخه في أكثر أماكن الذاكرة أماناً.

ثقل رأسي، وشُلَّت رجلاي أكثر من ثلاث ساعات، وأظنني بكيت كثيراً قبل أن أنتبه إلى أنني وحيدة في المكان، وأنّ المساء قد زحف شرساً على كل شيء حولي، ولو لم أشعر بالخوف لما تحركت وربما من حسن حظي أني لحقت بآخر حافلة متوجهة إلى الحي.

حين بلغت باب غرفتي شعرت أول الأمر بالخوف من مواجهة سماح وبالخجل من الوقوف أمامها عارية أخبّىء عورتي بأسمال اختيار خاطىء وحب فاشل.

فتحت الباب، كانت الغرفة معتمة، أضأت، لم أجد

أحداً فكرت أنّ سماح قد تكون في مطعم الحي تتناول عشاءها أو بالـ «jazz» عند صديقتيها كريمة وصليحة، وقد أراحني ذلك إذ أغلقت الباب وانفجرت باكية، وأنا أردد جملته الأخيرة التي تركها لي تذكاراً لا ينسى، قالها لي بالفرنسية:

Tu raisonnes avec tes pieds! (إنك تفكرين برجليك)

ـ (بالتأكيد) certainement حبيب (قلت لنفسي) وإلّا ما كنت أحببتك وصدّقتك، واحترمت نذالتك ونياتك السيئة.

خاطبته كأنما يقف أمامي، وقلت له ما كان يجب أن أقول حين كان كذلك.

أفرغت حنجرتي من تلك الغصّة المتورّمة، ومن مرارة الصدمة وربما بكيت كثيراً قبل أن يفاجئني صوت سماح:

ـ اغتسلي بالماء، بدل أن تغتسلي بدموعك مثل الأغبياء.

انتبهت إلى أنها تقف ورائي بلا مبالاتها المعتادة، وكأنها تعرف مسبقاً ما حدث لي.

أدارت لي ظهرها وواصلت تهكّمها الجارح، وهي تفتح إصبع «شوكولا» وتقضم منه قضمة، الشيء الذي جعلني أثور في وجهها مرة واحدة.

ـ إنك معقّدة، وعقدك لن تفكّيها بالتهكم عليّ.

ثم هرولتُ نحو الباب وخرجتُ...

لم يكن بإمكاني أن أتحمّل تعليقاتها الفوقية تلك، إذ كانت إلى حدٍّ ما تشبه ما يمكن أن يكون جملة الأعمام والعائلة والشارع... والضمير، والناس الذين لا يأبهون بحزن المرء حين تختاره المصائب دون غيره، ولكنها أيضاً كانت شبيهة بالملجأ الذي لا خيار لنا باللجوء إليه حين تمطرنا السماء بالقنابل والغضب. ولهذا أهرب منها أحياناً، وأحياناً أخرى أبحث عنها لتكبس لي على أزرار الضمير، وأشتاق إليها كما يشتاق أي مازوشي إلى ضربة سوط، كما لو أن القدر اختارها لي هي الأخرى لئلا أتحرّر من سجني دفعة واحدة.

أعود إليها دائماً، وأفتح لها صناديق فرحي وخيبتي معاً وأنتظر منها تلك التعليقات الحادة، الجارحة، المسيلة لدمي.

دائماً أعود...

ولهذا لم أجد غيرها أحدّثه بعد ساعات طويلة قضيتها جالسة وحيدة في حديقة الحي فعدت إليها أجر ذيل الخيانة الذي حمّلني إياه حبيب في رأسي.

استنجدت بقسوتها تلك:

ـ حبيب كان يلعب معي لعبة قذرة يا سماح.

ـ كل الرجال يلعبون هذه اللعبة، فما الجديد؟ صدّقيني حين رأيتك تبكين، ربطت بكاءك بحبيب مباشرة.

ـ كأنك تعرفين ما حدث؟

ـ حذّرتك لما سمعت الكلام.

ـ ولكنني كنت صادقة إلى أقصى حدّ معه، إلى أقصى حدّ. . .

رويت لها ما حدث وقد عاودتني نوبة البكاء، وشعرت أنها لأول مرة تشفق عليّ وتلين لهجتها معي:

ـ ما يجب أن تفكّري فيه الآن هو أنّ ما كان بينكما انتهى.

ـ إنك لا تفهمين. . . لقد كتبت رسالة لوالدي أشرح له فيها كل شيء، ستكون حتماً بين يديه في ظرف أقل من أسبوع، أنظري إلى أي مدى كان صدقي، وإلى أي مدى كان حبّه، ترى ما الذي سيحدث، حين يسأله والدي عمّا كان بيننا؟

ـ لويزا، ما الذي حدث بينكما، لا تقولي لي إنك ذهبت معه إلى أبعد من القبلة. . .

ـ القبلة في حدّ ذاتها كارثة بالنسبة إليّ اليوم.

ابتسمت، وتنفست نفساً عميقاً وأطلقت زفيراً ذا معنى ثم قالت:

ـ معليش «بزّنه تشيخ وبذيها الريح» كما يقول المثل.

ـ عن أي مثل تتحدثين يا سماح، ما تحويه رسالتي اعتراف بأنني لست أهلاً للثقة. غداً سيعرف كل الأعمام والأهل أنني ارتميت في أحضان حبيب، وغداً سيعرف والدي أنني أركض وراء رجل لا يريدني لأنني بمفهومه امرأة ساقطة، لن يصدق أحد أن حبيباً كان يعدّ لي مصيدة تحت نزوته.

ـ تفكرين بأشياء بعضها مستحيل حدوثه، وبعضها يمكن علاجه، تتمنّين ربما لو أن ساعي البريد يصاب بالجنون قبل بلوغ العنوان الذي يقطن فيه والدك، فيرمي بكيس الرسائل في النهر أو ربما بانفجار الطائرة التي تنقل الرسائل إلى فرنسا، ولكن هذا لن يحل المشكلة، وفي الواقع الحل الوحيد لدينا هو أن ننام ثم نثق أنه لن يصيبنا إلّا ما كتبه الله لنا.

■

مرّ شهر هادئ، دون حدوث الهزة التي توقعت.

اهتزّ البلد، ولا شيء حدث بالنسبة لي.

تجاهل والدي الرسالة ربما، وربما لم تصله، وربما فاقت خيبته في حدود خياله فاعتبرني غير موجودة... حتى مكالماته غابت... والدتي أقسمت أنه تزوج، فذلك الانهماك المفاجئ هنا لا يمكن أن تكون وراءه إلّا امرأة

ذات حضور قوي في حياته. أخوتي لم يكن يهمهم الأمر كثيراً، حتى إنّ «وداد» قالت لي بالحرف الواحد: «ليته ينسانا دائماً، يُريح ويستريح، لم نعد بحاجة إلى أشيائه التي يرسلها إلينا» لكنني لم أرغب في تصديقها إننا جميعاً بحاجة إليه. . .

حين توفيت جدتي، رأينا والدتي تنهار، كانت تعرف نفسها وقد أعياها داء الخجل والحياء من كل شيء. تداري غضبها ورفضها، ورغبتها تحت تلك الطيّات في أسفل الجبين.

كنا بحاجة إليه ليغطي ضعف والدتي أولاً ثم ليملأنا بحضوره.

كُنّا. . .

الأحلام دائماً لا تتجاوز مدارات رؤوسنا الصغيرة، فها نحن نقف جميعاً خلف السقوط بخطورة، مشغولين عن عواطفنا بما حلّ بالبلد.

■

ها هي أقدامهم تنسحب.

لا شك أنها تنسحب، فلم يعد للثورة مكان لها في البيت الذي أسست، بعد أن جاءتها الضرّات. لم يعد للتاريخ والانتماء مكان في الذاكرة... ما دام قد جاءهم الأجل...

كنت لا أعي بالضبط ما يحدث لولا الحماسة التي كان خالي «حميد» يحرّك بها انعزالنا.

قال لي في ذلك المساء الفاتر ونحن أمام شاشة التلفزيون نتابع مسيرة «الأفلان».

ـ أشعر أن جبهة التحرير ستموت.

قلت له بلا مبالاة:

ـ لتمت.

وعلّق أخي «مراد» ساخراً:

ـ الا يا جبهة التحرير نوحي، الا يا عشق خالي العزيز استريحي.

لكن خالي لم تكن معنوياته على ما يرام في ذلك اليوم، فخاطبه غاضباً:

ـ يا خي جيل يا خي... «ياكل في الغلّة ويسب في الملّة». لولا جبهة التحرير، لما كنت تجلس أمام شاشة التلفزيون في بيتك الدافىء وتصوغ جملة صحيحة باللغة العربية وتسخر من خالك بهذا الأسلوب البايخ.

وكأن «مراد» شعر بالذنب، فأراد تغيير مجرى الحديث بطريقة أكثر تهذيباً:

ـ في كل الحالات أنا لن أنتخب، وسأحتفظ بصوتي لنفسي، لم أعد أثق بأحد.

قاطعه خالي:

ـ ترى لو كان جدك حياً، هل تصدّقه وتثق به، وتمنحه صوتك؟

ـ لو... (وقد ضغط على «لو» بشكل أوحى بسخرية في معناها) لو كان جدّي حياً... لكن لاحظ أنه منح لهذا الوطن كل شيء، فيما لم يستطع الوطن أن يمنحه على الأقل قبراً، إنه يشبه الأسطورة التي تتناقلها الشفاه، يسكن الريح، يسكن الهواء يا خالي...

ـ لا تتفلسف كثيراً، لقد رماه الفرنسيون من طائرة،

وتبعثرت أجزاء جثته في الخلاء، لا أحد عثر عليه ليبني له قبر.

ـ أكلته الذئاب، وما زالت ذئاب أخرى تأكل اسمه، حفيت قدماك وأنت تقدّم الطلب بعد الطلب من أجل أن يطلقوا اسمه على أحد المستشفيات، أو الشوارع، ألم تشعر بضآلتك وأنت تطرق أبوابهم، وتصافح أيديهم القذرة وتبتسم لهم رغم المرارة التي تسكن حلقك، لا من أجل أن تطلب منهم حق يتمك وفقرك وجوعك، وضياع حياتك بين غياب الأب، وصراع الأم مع مجتمعنا البشع كما تُصارع الوحوش من أجل أن تعيش، فعلت ذلك من أجل أن يحترموا اسم الرجل الذي حين خُيِّر بين الوطن والجنّة التي كان فيها اختار الوطن... سكت قليلاً ـ كنا جميعنا ساكتين، تتأمّل خالي الذي اغرورقت عيناه بالدموع ـ ثم واصل دون انتباه:

ـ طز في جبهة التحرير، وطز في هذا الشعب، ثم وقف وخرج.

تراني ولحقه خالي، والأرجح أنه هرب ببكائه إلى الخارج. كان الرجل الذي يمقت عطف بني آدم عليه، ولا أظن أنه بكى في حضرة أحد حتى حين ماتت جدتي.

كانت عادته أن يكشف ضعفه للأزرق والأخضر وما

يحدث بينهما من بوح، يسلم حزنه إلى الطبيعة، يناجي كائنات طفولته وعمره، الذي سُرق منه. يجد راحته في عالم الطيور، وذوات القوائم الأربع، حيث لا وجود لـ «بوزوغ كرغين» على رأيه. كان بالضبط الرجل الذي لا يُلدغ من الجحر مرتين، لا يصدّق من كذب عليه مرة، لا يأمن لمن خانه مرة، ولا يلجأ لمن عضّه مرة. وأظنه تعلّم الدرس باكراً حين كان غضاً، طرياً بلا حماية أب، ولهذا لم يعد يمدّ يده إلى أحد طلباً للحاجة، فقد انطوى على أشيائه، وانطوى على خيبته التي لم يفهمها أحد، والتي لم يتقاسمها مع أحد، كأنما خُلق كائناً استثنائياً لامتصاص فائض الوجع من الكون والذي نصنع بعضه دون وعي منا، بكلامنا اللامرزون.

ندمت فيما بعد على إجابتي تلك، وفكرت في أن مراد أيضاً كان يمكنه أن يخفّف من حدّة مواجهته له في كل مرة.

لقد كان غضبنا من جبهة التحرير غير منطقي، وغير سوي لأننا لم نعرف أن نفصل الأزمنة، ونقرأ التاريخ، لم نعرف أن نركّب «لعبة الليغو» التي بين أيدينا، لم نميّز بين ما مضى، وما حدث من فعل أيدينا، ولذلك توجّهنا إلى صناديق الاقتراع ذات صباح غير عادي تحمل عقدنا

المختلفة وهي تغلي على لهيب الغضب ونحن نعرف مسبقاً أننا لم نذهب للانتخاب، بل للانتقام...

اعترض طريقي أحد الأطفال وهو ينط ويريني الرقم ستة.

ـ انتخبي الله... انتخبي الله.

كان يقصد «القيس».

في غرفة الاقتراع، كان أمامي رجال وأرقام، ورقم شُيِّعَ (لله) يفترض أنه يختفي وراء صورة رجل لا يختلف عن بقية أولئك الرجال في فيزيولوجيته، ونزواته، وشهواته، ورغبته في اعتلاء شجرة السلطة، تلك الشجرة التي أخرجت آدم من الجنة، وجعلت أبناءه يغرقون في أودية من الدم.

من أختار؟

وقفت أتأمل الصور، وصوت خالي حميد يأتيني قوياً:

ـ اللصوص كلهم فرّوا من «الأفلان» اليوم، هذه فرصة جدك أحمد ليعود إلى الحياة.

لكن اللصوص كالفئران لا نراهم حين يتسلّلون إلى بيتنا ويقضمون ألذّ الأشياء وأجملها دون أن ننتبه.

من أختار إذاً وبيت «الأفلان» مثقوب ومفتت؟

هل سأمنح لجدي بيتاً قضت على رونقه وصلابته

الفئران؟ وفيما أنا أفكر، لم تحترم عجوز مستعجلة خلوتي الانتخابية، أزاحت الستار قليلاً وأطلّت عليّ قائلة:

ـ أشا ثابزتات هطضض (أيتها الصغيرة، هل تمت) أجبتها: لا.

وخرجت وأنا أحمل الظرف فارغاً، وضعته في الصندوق، وقّعت، ثم حملت بطاقتي وخرجت.

عند الباب كان أحد الشبان يجمع الأوراق التي تُرمى، سألني:

ـ من انتخبت؟

قلت: الله (لم أقصد غير ما فعلت).

ولم أنتبه كيف مدّ يديه بسرعة نحو الأوراق في يدي، واختطفها مني، ثم راح يصرخ في وجهي وهو يمسك بالورقة، الرقم ستة:

ـ أيتها الكاذبة؟

وهوت يده على خدي بقوة أوقعتني أرضاً، صرخت، فيما همّ ليركلني برجله لولا تدخّل بعض الشباب، فأمسكوا به وهو يصرخ: الله أكبر، الجهاد في سبيل الله، حجابك باطل، حجابك باطل يا كافرة...

حاولت أن أتماسك ولكنني لم أستطع، مددت يدي لأمزق وجهه بأظافري، فلم أطله، تدخّل الحاضرون لتهدئة

الوضع، ولم أجد وسيلة لحرق دمه غير نزع الخمار من على رأسي، والإلقاء به في وجهه.

قلت له: ـ إذا كان هذا ما سمح لك لتتعدى على خصوصياتي فهو لك.

وكان بودي أن أمزق الجلباب أيضاً وأرميه في وجهه ولكنني تمالكت نفسي، وعدت إلى البيت مكشوفة الرأس. وبمجرد وصولي، أخذت مقصاً، وجلست أمام المرآة، وقصصت شعري أقصر ما يمكن. وقد أثرت بتصرفي ذاك سخرية «زيتونة» و«وداد».

قالت لي زيتونة وهي تضحك:

ـ أظنك أصبت بالجنون.

قلت لها والغيظ يلف حبلاً حول عنقي:

ـ سأكون مجنونة إذا تقبلت جسد الأنثى الغبي الذي يكبلني، لو كنت رجلاً لقتلت الرغد... اليوم... كنت «تاصيث» (حُكم علي بالسجن) خير لي من هذه الإهانة.

قالت وداد:

ـ coupe garçon (قصّة رجل) لن تغيرك إلى رجل.

قلت لها:

ـ إن كان الحجاب يسمح لرغد مثل هذا أن يصفعني أمام الملا ويتدخل في حياتي فقد أعطيته له، لن أرتديه

منذ اليوم، وسأترك الجامعة إذا أراد والدي ذلك، لكنني سأحترف الإجرام وأول واحد سأقتله عمّي مصطفى وابنه، وهذا الوغد.

ضحكنا عالياً، وقالت زيتونة:

ـ كنت أظن أن صفعة مثل هذه ستجعلك تعرفين جيداً المجتمع الذي تعيشين فيه، وتتسين غرورك جانباً، وتعيشين كما يعيش الناس.

فقلت لها: عيشي أنت مثل الناس، أنا أعيش على ذوقي وفوق الناس.

واستمرّ النقاش بيننا حتى تحوّل إلى شجار أنهاه خالي بتدخّله.

في المساء اتصل والدي واستفسر عمّا حدث، فالواضح أنّ وكالة أنبائه لم تأخذ الخبر من مصدر موثوق، لكن كالعادة، لم تعرف والدتي أن تحكي له ما حدث بالضبط، بدأت تتلعثم وتفصّل الحكاية بشكل يكاد يكون مغايراً لما حدث، فأخذ «مرادة» السمّاعة من يدها لينقذ الموقف لكن والدي طلبني أنا. ارتخت قدماي، وارتخى لساني، وركضت نبضات قلبي نحو أعلى الرأس، تحاول أن تصنع فيه ثقباً، لكنها بدأت تهدأ حين جاءني صوت والدي بارداً، هادئاً، كما لم أتوقّع، قال لي:

ـ إنك تهزرين يا «لويزا» ولا أريدك أن تكوني هكذا يا ابنتي.

ـ بابا أنا...

ـ اسمعيني يا ابنتي، أولاً من تفكر في الزواج وهي تخطو أول خطوة على درب طموحها لن تخطو الثانية أبداً، وثانياً، احترسي من أبناء العمومة، قبل أن تحترسي من الأغراب، وثالثاً يا لويزا، إمشي على مهلك، تصلي أسرع، هل فهمت يا ابنتي؟.. أمّا موضوع اليوم فلا يهمّني... مفهوم...

أجهشت بالبكاء وأنا أقول له نعم بابا.

وبكيت أكثر حين قال لي: «لا تخافي»، ثم أنهى المكالمة بعد حديث قصير مع والدتي.

هكذا الآباء إذاً يحضرون في اللحظة التي نظن فيها أننا فقدنا كل شيء، لأنهم يعيشون على مهل فيما نحن نعيش قفزاً على الحبال.

هكذا يأتون في جنح الهدوء والمودة، وكأنهم يعتذرون من كل ذلك الغياب.

هكذا أبي.. مثل أولئك الآباء الطيبين الذين أقرأ عنهم في القصص والروايات.

هكذا هو اليوم، لأنه شعر أنّ كرامته أكلت صفعة من

يد نذل. لماذا كان لامبالياً كل هذا العمر؟ وهل يرتدي دور اللامبالاة بعد هذه المكالمة.

كنت مذهولة، ولكن قوية.

وسعيدة جداً ولهذا خفت، ثم لازمني الخوف، لأن أسباب السعادة عمرها قصير.

الخوف كان مرضاً يرافقني حيثما حللت، ولا أنساه إلا حين أنغمس في قراءة رواية جديدة أو أشاهد فيلماً جميلاً، أو... حين أحلم، أحلامي تلك التي تهدهدني قبل النوم. في تلك الليلة، حين انشغل الجميع بمتابعة نتائج الانتخابات الأولى في الجزائر الديموقراطية، كنت أجلس إلى مجموعة روايات الكاتب يوسف عبد الجليل، ولم أكن أعلم ليلتها أنني دخلت عالمه كرجل، وأن قراءة كتاب لا تنتهي دائماً على هدوء، قد تنتهي على بداية مغامرة.. أو بداية حياة..

كان يوماً سخيفاً رغم ما حدث.

سخيف.. لأن شيئاً تغيّر فيَّ أنا، وشيئاً تغيّر في والدي، وشيئاً آخر أكبر تغيّر في الوطن.

بكى خالي حين أعلنت نتائج الانتخابات النهائية،

«الفيس» احتلّ أغلب الوطن.

جدّي لن يكرم بعد اليوم، ستظل أنفاسه معلّقة بين

أرض لم تعرف أن تحتويه، وسماء سجلت بقايا أصوات تلذذت موته تلك. قد يكون أحد تلك الأصوات صرخ:

- **Aller, Vole petit oiseau**

(هيا طر أيها العصفور الصغير).

ويسايرها آخر قائلاً:

- **Saute Mohamed ta vie vient de finir ici dans l'air**

(اقفز، محمد، حياتك انتهت هنا في الهواء).

وقد تكون قهقهت بسخرية لاذعة كما تفعل الوحوش، قبل أن يهوي جسدي من باب الطائرة مدفوعاً من أحد أولئك المجرمين، وفي الغالب قد يكون سمع شيئاً كهذا قبل أن يرتمي في حضن الهواء:

- **Quelle chance, c'est une mort impeccable.**

(يا للحظ، إنه موت رائع).

وقف خالي باكياً:

ـ الطبيب أحمد ملكمي لن يموت، وإن لم تكرمه الجزائر، سأكتب اسمه بنفسي على كل الشوارع، والمستشفيات والمدارس، وحتى على القبور...

لم أر خالي في منظر كهذا من قبل، لم أر وجهه بهذا السواد وشعره بهذا البياض، كأنما شاخ فجأة.

رأيت ذلك الموقف في لحظة قصيرة، لم تتجاوز مسافة

دخولي المطبخ لإحضار كوب ماء، توقفت، ولكني لم أحتمل مواصلة سماع رثائه ذاك لرجل غادر الحياة منذ ثلاثين سنة.

لم أحتمل رؤية جرحه مكشوفاً، فركضت نحو غرفتي، وبعد دقائق دخلت زيتونة ووداد، وحتماً انسحب مراد وأخي الصغير سليم ليحلّ الصمت في البيت، ويمتلىء حزناً كالعادة.

بالنسبة إليّ لم تكن نتائج الانتخابات تعني لي الكثير، ولكن ألم خالي هو كل ما كان يسيء إليّ.

طويت نفسي في فراشي كجنين في بطن أمه، وسحبت رواية «الطعنة» ليوسف عبد الجليل أتمم قراءتها.

كانت زيتونة ووداد تتحدّثان، بصوت مسموع على غير عادتهما.

قالت زيتونة:

ـ خلاَصْ.

قالت وداد:

ـ ما خلاَصْ ما وَالُو.

قالت زيتونة:

ـ هل تعرفين أن سامية ابنة السبتي سترتدي الحجاب؟

سألتها وداد:

ـ كيف عرفت؟

أجابتها:

ـ هي قالت لي ذلك، قالت: «إذا نجح الفيس سأرتدي الحجاب» أخبرها إسماعيل معهم، وقال لها إنهم سيفرضون الحجاب على كل النساء، وسيمنعون الاختلاط في الحافلات وسيارات التاكسي والمستشفيات والمدارس.

قالت وداد:

ـ سنصبح مثل «بني مزاب» يعني؟

قالت زيتونة:

ـ لا . . . «بني مزاب» تقاليدهم نظيفة، وهم مسالمون، أمّا الفيس فسيفرض ذلك بالقوة. . .

قلت لهما:

ـ وماذا قال خالي؟

ردت زيتونة:

ـ خالي غادر الدنيا منذ هذه اللحظة، الآن أصحاب الفيس هم الذين يتحدثون.

وقالت وداد:

ـ لا تقولي لي إنك لن ترتدي الحجاب مرة أخرى، سيتعقدون عليك.

قلت لهما:

ـ لا أحد سيتعدى عليّ، تكلما بهدوء، أريد أن أقرأ...

فقالت زيتونة وهي تضحك:

ـ اقرئي... مصيرك سيكون مثل مصير خالي، بيته كله كُتب مثل الآخرة، الناس فيه كلهم موتى.

وقالت وداد:

ـ تذكري أن هناك مثلاً يقول: «صاروا علماء وماتوا».

قلت ساخرة:

ـ ها... ها... ها... والحمير؟... لا يموتون؟

ضحكنا، وقالت زيتونة:

ـ أنت لسانك طويل، والأفضل لنا أن نخفض صوتنا، وتطالعين... هذا أفضل...

قلبت الكتاب لأرى ما يحويه الغلاف الأخير، فلم أقرأ سوى أسماء رواياته السابقة، وربما أحببت أكثر عنوان «الشهد والدموع»، سحبت باقي الروايات من تحت السرير، بحثت عن تعريف ما للكاتب، فلم أجد شيئاً.

قلت في نفسي: يبدو أنّ هذا الكاتب من النوع الذي لا يحب الحديث عن نفسه، أو أن حياته الشخصية أثرى من أن تختصر على غلاف كتاب.

عدت إلى «الطعنة»، رواية من القطع الوسط، صادرة

في تونس مطلع الاستقلال، ورقها أصفر قليلاً، ورائحته تميل إلى رائحة التراب، شممتها برفق، وعدت إلى قراءتها هروباً مما حدث بعد أن فككت رموز خارجها وتهيّأت تماماً لقراءتها بحب.

أحب تلك المفاتيح الصغيرة التي نعثر عليها في تقوب أغلفة الكتب وتنتظر من يديرها في الاتجاه الصحيح، وقد وجدتني أشمّ الكتاب برائحته القديمة تلك منذ الرحلة الأولى التي أمسكتُه فيها وأنا أسحبه من الرف الأعلى للمكتبة مغطى بالغبار حيث قلت لخالي:

ـ هل هو كاتب جيد؟

فأجاب:

ـ الشرق لا يلد إلّا الكتاب الرائعين.

عقبت على جوابه سائلة:

ـ وهو من الشرق؟

أجاب:

ـ من قسنطينة.

فسألته:

ـ وهل هذا سبب كافٍ ليكون جيداً؟

فقال:

ـ طالعيه، وسأقول لك لماذا هو جيد.

قلت بإصرار:

ـ لا.. لا.. أريد أن أعرف الآن.

فقال:

ـ لا أدري لماذا يعيش جيلكم بعجلة.. على ماذا أنتم مستعجلون! فقلت له مترجية:

ـ خالي... رجاءً أحب أن أعرف لمن أقرأ، ذلك يجعلني أتحمّس لقراءة الكتاب.

ـ جيلنا كان مختلفاً، كان يدخل البيوت من أبوابها، من الذي كان يعطي تأشيرة المرور للكاتب إلى عالم الضوء، لا يهمّنا من يكون يهمّنا ما يكتب...

ـ اختلف الوضع اليوم يا خالي، كنتم تعيشون من أجل قضايا محددة، نحن نواجه «التقسيم» العالمي الجديد، الحروب المفتعلة، الأفكار والتيارات المختلفة والمتناقضة.. وغيرها...

قاطعني بصرامة:

ـ ولهذا لا تطالعون، تسمرون وتشاهدون، وتضعون أنفسكم في فترات ضيقة، طالعي يوسف عبد الجليل، فلا أحب أن أفتح خزائن ذاكرتي وأشوش ترتيبها إذا كان الأمر لا يهمّك بعد قراءة الكتاب، هيّا اذهبي..

انغمست في «الطعنة»، وجدتني أسافر مع مجموعة من

الطلبة المتوجهين إلى تونس للدراسة إبان ثورة التحرير، عشت أحلامهم الصغيرة، وتقاسمت معهم الرغيف الجاف، ولسعات الخوف، سرت معهم الدروب الوعرة إلى أن تحوّل الحلم إلى كابوس، إلى جحيم، حين حلّت كبسة الموت عليهم جميعاً على يد أحد المجاهدين للحراسة فيما الآخرون نيام، وحين أفاق أحد زملائه في آخر لحظة صرخ من هول ما رأى:

ـ قومي (guoumi)... حركي... كلب... قتلت خاوتك هب لقتاه.

استيقظ رفيقاهما، شهدا القتال...

وصف الكاتب ذلك بكثير من الدقة والمأساوية، وصف ما حدث بينهما، قال:

ـ تلك المبارزة لم تكن مبارزة بين اثنين من نبلاء القرن الماضي، وذاك الحديث لم يكن سوى مناوشة ما قبل الانتحار.

قال المجرم:

ـ بدل أن تقتلني فكر، نحن من نواجه الرصاص بصدورنا، نحن من نترك خلفنا الأرامل والأيتام، نحن صانعو الثورة، وهم من ينعمون بهواء تونس والقاهرة، سيتعلمون، وسيعودون بعد أن نُخرج فرنسا ليجلسوا على

كراسي الحكم والمسؤولية، ونحال نحن على التقاعد كأنما انتهت أدوارنا، الثورات دائماً يقوم بها الفقراء والأميون، والانتصارات يحتكرها المثقفون، فكر... ستلغى أدوارنا، سيُشوَّه تاريخنا...

ردّ الثاني، بأنفاس تقاطع الكلمات، وعرقه يسيل، ولعابه يتطاير:

ـ يا كلب، لقد قتلت الوطن، لقد قتلت الوطن، بأي حكومة نواجه العالم إذا كنا كلنا أميين؟

وهجما على بعضهما بعضاً يتضاربان، فيما الاثنان الباقيان أصابتهما الصدمة.

أنهيت قراءة الرواية، وقد التهمتني غصّة حزن، ليس لموت من ماتوا، بل لأنني فهمت خالي أكثر:

يا لهذه «الطعنة»...

لم أفلح في هروبي ذاك تلك الليلة، لقد قادتني تفصيلات رواية قديمة إلى بؤر الحقيقة المغطاة.

ذات يوم، قال لي خالي حميد:

ـ لن تفهمي ما يحدث في البلاد حتى تأتيك الطعنة من الخلف، إننا شعب لا يمكن أن نتصالح مع الحضارة ما دام عرق الخيانة يفتح سواقيه بين الحين والآخر على حقولنا.

لم أفهم يومها قصده، فقد كنت مقتنعة أنّ الجزائر وطن لا يشبه غيره. كنت طفلة ولهذا كنت أراه كبيراً جداً، ورائعاً جداً واسمه بلد المليون ونصف المليون شهيد. . .

ما أجمل الحياة، والوطن، حين نكون أطفالاً.

ما أجملها حين تكون محفوفة بما لا نعلمه. مزينة بجهلنا اللذيذ لما يجري خلف فرحنا.

وما أتعسها حين تُفاجئنا بكاء يحتويه كتاب.

نمت ما تبقّى من ساعات الفجر، أستعيد فصول الرواية في أحلام متقطعة وثقيلة؛ وحين صحوت، تسلّلت إلى بيت خالي أضم يوسف عبد الجليل إلى قلبي، قرعت الباب قرعاً خفيفاً، انتظرت قليلاً، وهممت بالنزول، لكن الباب انفتح:

ـ ظننتك نائماً حين لم تفتح بسرعة.

ـ لا لم أنم. . . ما بك؟

ـ لا شيء. . . أحببت الكتاب.

إبتسم ودعاني للدخول.

دخلت مباشرة المطبخ، وضعت الركوة على النار، ووضع هو فنجاناً على الطاولة، ثم نظر إليّ وقال:

ـ لم يعد عندي حليب، تشربين فنجان قهوة معي؟

قلت له:

ـ سأشرب.

وضع فنجاناً ثانياً، واعتدل في جلسته وقال:

ـ هاتِ ما عندك.

ـ لم أطالع نصاً كهذا من قبل لكاتب جزائري، سواء في جرأته، أو في لغته الجميلة.

طبعاً، لأنه رجل مختلف. أغلب كتّاب العربية عندنا لا هم شرقيون ولا هم غربيون ولا هم جزائريون، إنهم يعيشون بمحاذاة الحائط، ويكتبون بمحاذاته أيضاً...

ـ ليس إلى هذه الدرجة، إنك تحكم على الناس من منطلقك الفرنكفوني، ما قصدته أنا، هو جرأة هذا الرجل.

ـ دَازْقَازْ... أليس كذلك؟

ـ تعرفه؟

ـ أعرفه... كان زميلاً.

قلت له بحماسة:

ـ كيف هو، صفه لي.

ـ لماذا يهمّك وصفه؟

ـ أشعر أنه يشبهك، أو أنه أنت، في كل كلمة قرأتها له في «الطعنة». لم أكن أسمع صوتي، صوتك كان يقرأ لي، وجهك كان كئيباً في كل تلك الكلمات، وقد حاولت

الفصل بينه وبين راويه وبينك، فلم أستطع... أحبك جداً يا خالي هل تعرف؟

ـ مدّ يده وربّت على كتفي، ثم ابتسم دافعاً بي دفعة خفيفة نحو الكرسي المجاور له.

كان ذلك ردّه على آخر ما قلت، فلم يسمح له عطبنا الجزائري أن يصوغ جملة تليق بمقام حب أبوي بين رجل وابنة أخته، سألته:

ـ غير الطعنة، ماذا عندك له؟

ـ كل رواياته تقريباً، ما عدا اثنتين صدرتا في السنوات الأخيرة في القاهرة، وله مجموعة شعرية يتيمة أصدرها في بداية الطريق.

ـ كان شاعراً؟

ـ كان فاشلاً كشاعر.

ـ غريب.

ـ ليس غريباً، لقد كتبه باللغة الفرنسية.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ لا شيء... قرأناه نحن، والأجيال التي جاءت بعدنا لم تقرأه.

ـ هذا لا يعني أنه فاشل.

ـ يعني أنه أساء الاختيار، ما جدوى الكتابة لقارئ غير موجود، الكاتب الذي لا يُقرأ كاتب فاشل.

ـ هذا غير صحيح يا خال، كتّاب كثيرون رفعهم النقد إلى فوق، وكتبهم لم تخرج من رفوف المكاتب بعد.

قال ساخراً:

ـ غداً ستعرفين أن لا نقد في الحقيقة، هناك أصدقاء وعلاقات وكتابات تملأ مساحات في الجرائد لسدّ الفراغ، من قرأ رشيد بوجدرة مثلاً وفهمه، غير شلّته الصغيرة التي دقّت له الطبول؟

ـ إنك تبالغ يا خال... إنه «ماركيز» الجزائر.

ـ ومن قال لك إن «ماركيز» يحبه القارئ الجزائري، الجزائريون أحبوا «نجمة»، أحبوا «رصيف الأزهار لا يرد»، أحبوا «الدروب الوعرة»، أحبوا «ريح الجنوب» وكل الذين ماتوا أو على وشك الموت قبل أن تصل الجزائر إلى الوحل.

ـ إنك تناقض نفسك.. بكل صراحة.

ـ قد أكون كذلك، أنا لست معصوماً عن الخطأ، لكنني متيقّن أنّ القارئ الجزائري لم يجد نفسه في النص الحالي، خصوصاً المكتوب باللغة العربية، ولهذا لم يعد يقرأ.

صمتت.

صمت هو الآخر، ولا أدري في ما كان يفكر.

أنا أنا فقد أصاب عامتي بكلامه، وزج بي في زواق ضيق، تحسست فيه ضخامة أزمتي طوال تلك الأشهر التي مضت، ما جدوى الكتابة لقارىء غير موجود.

كان يجب أن أقول له، ما جدوى مواجهتي للغة لا أفهم منها الكثير.

كنت أخفي إخفاقي عن الجميع كل تلك الفترة في الجامعة، متشبثة بشيء لا أدريه إن كان أملاً أو تضييعاً للوقت.

بعد ستة أشهر من الدراسة، عرفت أنّ كلية الطب ليست بالمكان الصحيح لي.

فكلما حاولت الانسجام مع أجوائها، اصطدمت بجدران اللغة. لم أكن أفهم إلّا الشيء القليل من محاضراتها، فأغلبنا نحن الطلبة معزبون، الشيء الذي يجعلنا في وادٍ والأساتذة في وادٍ آخر، وكثيراً ما أضربنا من الدراسة، رفعنا الأيدي والرايات والقمصان... وقفنا عراة... صرخنا أننا لا نفهم شيئاً «ناغلّبوها العربية» (يلعن أبو العربية) لكن لا أحد استجاب.

كنت ـ كغيري ـ ضحية قرار لاعقلاني أصدرته الدولة لمجاملة الشرق ومسح آثار فرنسا من الجزائر.

بعد شهر بالضبط من الدراسة، ومن ذلك الصراع مع مقاييس الدراسة وجدتني مطفأة تماماً، أجلس في قاعة المحاضرات مغمضة الحواس، أنتظر انتهاء المحاضرة للجوء إلى صديقتي «حسنة» لتشرحها لي من جديد باللهجة المحكية، فقد كانت من بين آخر دفعات البكالوريا الذين نجوا من كارثة ذلك القرار التعسفي...

ـ لكل قرار ضحايا. قالت لي حسنة ذات يوم حين وجدتني أبكي في غرفتي بصوت عالٍ، جالسة أمام دفاتري أتأمل رموز مقياس الـ: Histologie (علم الأنسجة).

قلت لها:

ـ لماذا يجب أن أكون ضحية، لماذا يجب أن تُعرّب بهذه الطريقة، لماذا في هذا الوقت الذي أُفقد فيه العقل والعلم والحياة، من من العرب يشعر بأزمتي اليوم، إنهم يصفقون لقرار كهذا من وراء إيمانهم المتين بأن لا وحدة بيننا حتى وإن فرّقتنا.

ليتها استوعبت أزمتي هي الأخرى، أو ليتها أبصرت جيداً ما أرمي إليه... لكنها قد تكون أدركت أن اللغة هي أهم عوامل النجاح، فمن بلغ كلية الطب بمجموع

جيد، حتماً له مستوى من الذكاء أهّله لذلك، لكنها لم تدرك ما يفقده الإنسان من عزيمة يوماً بعد يوم أمام عقبة الضعف تلك التي تتسبّب فيها عوامل خارجة على نطاقه، إذ لم يكن الوقت مناسباً لتعلم اللغة وفق كل تلك المقاييس التي تتطلب الكثير من التركيز والحفظ...

ولهذا رغم كل ما بذلته من جهد فشلت وكانت النتيجة المنطقية لعامي المضني ذاك «Ajournée» أي راسبة، وكان يمكنني أن أتأسف أو أبكي على نتيجتي تلك كما فعل أكثر زملائي الراسبين.

لكنني لم أفعل...

كنت قد وجدت السند قبل السقوط.

بالفعل كان هو من ترقّل إلى عتمة اكتئابي وأشعل قناديله هناك، يوسف عبد الجليل...

أضاء مصابيحه في اللحظة التي حلّت فيها العتمة عليّ وقرع أجراسه موقظاً روحي، معلناً أنّ الموت لا يحلّ علينا بمجرد رسوبنا في امتحان.

لكنني شعرت أنني طعنت خالي في ثراة أحلامه.

أذكر سعادته بنجاحي في البكالوريا وكيف أصرّ أن ألتحق بكلية الطب. أرادني أن أمنح الحياة لمهنة جدّي إكراماً لذكراه، لكنني خيبت إرادته، ومشيت وراء مهنته

مر، فدون قصد منه جعلني أسير وراء أحلامه، حين وضعني في مواجهة رجل مثل يوسف عبد الجليل، بدأت قارئة له، وانتهيت عاشقة له، وأظنني قبل أن أتحرّك بفضول الأنثى نحوه، تحرّكت نحو لغته. سافرت إلى قسنطينة ذات صباح صيفي كئيب، ونقلت وثائقي إلى معهد اللغة العربية وآدابها، دون أن أبكي على فشلي في الطب، فعلت ذلك كأنما أضع صندوق مشاعري في برّاد يلائم حرارة ذلك الصيف الشرس، وتولّيت عزاء نفسي بالارتماء في حضن لغة باردة، كانت سبباً في إقصائي، أردت هزمها في الحقيقة، امتطاءها، تفكيكها وتركيبها على هواي، أردت أن أخضعها لمهارة لعبي أنا، لا السقوط في لعبتها الساحرة تلك التي جعلتني أدخل الحياة في عز عثراتي بعاهة اسمها عاهة اللغة.

وقد يكون يوسف عبد الجليل، مبرراً لا علاقة له بما فعلت، لكنه كان سبباً كافياً لإقناع نفسي بقراري ذاك، الذي لم يَبْدُ صائباً لكل أفراد العائلة.

مراد مثلاً قال لي:

ـ هذا أحسن ما فعلت، فتشريح الأبيات الشعرية لن تضطري بعده لغسل يديك.

عالي ردّ عليه قائلاً:

ـ بعض الشعر، تحتاج إلى أخذ حمام بعد قراءته، قالها دفاعاً عني رغم حزنه.

لكن أمي بكت، وهذا ما أثر فيّ، قالت إنها كثيراً ما حلمت أن تكون «أم الدكتورة».

أبي لم يهتم للأمر، خصوصاً بعد أن لاحظ أن خلعي للحجاب رفع أيدي رجال العائلة عني، على أساس أنه ميؤوس من إصلاحي.

خالي قال لي سرّاً:

ـ هكذا حصرت عمرك بين قطع الطباشير والسبورة.

لحظتها صُدمت بما قال، لكني كنت متأكدة أنني لن أكون مُدرّسة، قلت له:

ـ كيف تقول هذا، وأنت الأدرى بعطب اللغة الذي أعانيه، لأنك عانيت العطب نفسه حين عُرِّبت جريدة النصر، فوجدت نفسك مراسلاً صغيراً في جريدة المجاهد، الشيء الذي جعلك تنسحب لأنك لم تتعوّد أن تجلس في الصفوف الخلفية، وتفتح مكتبة ومحل تصوير، ويوم صدر قرار التعريب، وشمل الأقسام التي أنا منها، وكنت أبكي لأني صنّفت ضمن المعرّبين أقنعتني أنّ اللغة العربية جزء حقيقي من مجتمعنا، قلت لي إن جبهة التحرير وصلت إلى الشعب من طريق اللغة العربية، ولهذا ساندها

الشعب وهزم فرنسا. أنت من فتحت لي أبواب مكتبتك، عبأتني حين لم يكن أمامي غير خساري بدروس التحدي والاختيار...

سكت...

ولم أفهم سكوته، ألقبولي الحقيقة واعترافه بها، أم لغضبه من صراحتي...

إذ ظل طوال أشهر الصيف يتحاشى الدخول معي في موضوعات نقاش، فكلما تحدثنا عن أي موضوع وصلنا إلى الخلاف ذاته، كان يدرك في النهاية أن الصحافة هدفي، وعن دراية حذرني قائلاً:

ـ الميدان الإعلامي وسخ، ولا يمكن أن تصمد فيه امرأة.

لكنني غامرت منذ أن امتطيت القلم لكتابة خواطر، ثم قصص أخفيتها، ظناً مني أنها ستزيد من سخرية العائلة إذا اكتشفتها إلى أن وجدتني في معهد الأدب أفتح شيئاً فشيئاً صناديقي السرية، علناً... علناً، وأتباهى بما أكتب.

كانت أيامي الأولى بمعهد الأدب تطاردني فيها دموع امي أينما حللت، وفي أغلب الأحيان كنت أصل إلى الجامعة محبطة، فأتمشى قليلاً في رواق عمارة الأدب، أو عمارة العلوم أو في الساحة، وأعود إلى «نحاس» أرتمي في صمت غرفتي.

أحببت «نحاس» كثيراً، كان يطلّ على مبنى الإذاعة والتلفزيون، والجبل، والشارع، والجامعة الإسلامية، كان في حدّ ذاته محطة تلفزيون، أما غرفتي فكانت جميلة مريحة وتشاركني فيها زميلة من صفي اسمها «نرجس». في البداية لم أقترب منها كثيراً، كنت أخرج إلى المدينة هروباً من الصمت الذي يضعنا في مواجهة بعضنا البعض، فأمشي مسافات طويلة من «نحاس» إلى «ملعب بن عبد الملك» إلى «سان جان» إلى «الابريش»، إلى «شارع فرنسا»، «فسوق العصر» إلى تلك الأزقة الضيقة التي أضيع فيها دائماً ولا أخرج منها إلّا بمساعدة أحد حيث «رحبة

الصرف» و«الجزارين» وتلك الأزقة الضيقة والحوانيت الصغيرة، والحيطان البنية والطرق المرصوصة بقطع حجرية مستطيلة، وأغاني «المالوف» التي لا تسكت إلا حين يحل المساء؛ أتوغل في قدمها، وأتنفس ألمها وجمالها وأوهم نفسي في كثير من الأحيان أنني أصادف أبطال يوسف عبد الجليل يتبضعون ويتحاورون ويمرّون بقربي دون أن أنتبه لهم.

أجدني في مسرح قصصه عنصراً عابراً في قصة حب أو ثورة وموت. . .

وأسأل نفسي لماذا كتب الحب متأخراً؟

أيمكن للحب أن يجيئنا متأخراً؟ في الخمسين.. في الستين.. في.. السبعين..؟

ما الذي يمنعنا أن نحب غير التزاماتنا الاجتماعية وصدماتنا السابقة؟

وما الذي يمنعنا من كتابة الحب إذاً؟

أفكر والزحمة في تلك الأزقة القديمة الضيقة تمتص أسئلتي وأعود بعد تعب إلى «نحاس» أصب مشاعري على الورق.

في أحد هذه الأزقة تعرفت إلى حنان بن دراج، كانت

مع مجموعة من الفتيات وكنت أقف أمام بائع أعشاب وعقاقير أشتري حناء لأمي، سألتني:

ـ قدّاه الساعة... يْعيْشك؟

أجبتها:

ـ اسمحيلي.. لا أحمل ساعة، مانْهِمّنيش الوقت.

ضحكت وعلّقت:

ـ العرب كلهم لا يهمّهم الوقت، ماشي غير أنتِ.

قلت لها:

ـ بصّحّ أنا مانيش عربية، أنا شاوية.

فقالت:

ـ Tiers monde (عالم ثالث)، شاوية وَلاّ عربية رانا كُلْ في شاشية واحدة... (كلنا تحت قبعة واحدة).

وإذا بها تمدّ لي يدها لمصافحتي وتقول: أنا قسنطينية أباً عن جد.. تشرّفنا يا أختي..

أمسكت يدي وصافحتني بحرارة مدهشة، فيما انفجرت صديقاتها ضاحكات، وقالت لي إحداهن:

ـ مْعَ مَنْ طُحْت؟... (مع من وقعت؟).

كانت رهيبة في مزاحها وسخريتها، ولهذا أحببتها منذ ذلك اللقاء، وفيما بعد حين توطّدت علاقتنا عرفت أن إبتسامتها واجهة كذّابة لحزن عميق.

فقد قررت أقدارنا أن تقتسم الحزن والفرح معاً.

إذ التقيتها مرة ثانية في رواق عمارة الآداب، نظرت إليها مبتسمة وقائلة:

ـ ما زلت شاوية.

ضحكت، وجاء كلامها رتيباً جميلاً مع الضحكة.

ـ خيارُ الناس أختي، وأنا ما زلت بنت قسنطينة.

تقاسمنا المزاح السريع مرات، ثم صارت تجمعنا طاولة واحدة بالمكتبة الجامعية، ثم صرنا صديقتين.

كنا نهرب من صفوف الدراسة إلى المكتبة لأنها أدفأ، فقد كانت الصفوف باردة لعطل في نظام التدفئة.

وقد كنا نحب المكتبة لأنها ذات جدران من زجاج لا تخفي عنا ما يحدث في الساحة وتجعلني أحلم أكثر حين تمطر.

وأظن أنّ حنان أصبحت جزءاً مني حين عرفتها أكثر، والغريب أنها تختلف عن أبناء قسنطينة الذين لا يحبون أن يختلطوا بالطلبة القادمين من خارجها أو «des résidents» (المقيمين) كما يطلق علينا.

لحنان شعبية تجاوزت أبناء قسنطينة، إذْ عرّفتني على طلبة من تونس، وفلسطين، ونيجيريا، والصحراء الغربية، وحتى من البوسنة.

ودخلت معها كل زواريب المدينة، عرفت أوجه قسنطينة، خباياها، أحشاءها، لم أترك شيئاً لم أعرفه وأنا معها. نمشي حتى تنكمش رجلاي من الألم، هي لا تتألم، تقول لي:

ـ بيتنا هو الذي يؤلمني من كعب رجلي حتى سقف رأسي كانت كلها أكبر من الألم.

ولهذا ضحكت حين قدمت لها كتابين كانا معي لتتسلّى بمطالعتهما ذات يوم، نظرت إليهما وقالت:

ـ «أحلام جومرجي» ليوسف عبد الجليل، «الربيع والخريف» لحنا مينا، «صباح الخير» لآله لويزا، «الخبر الأخير تحيير تونس» لقد طالعتهما من زمان.

شعرت بخيبتي فجأة، هززت كتفي وقلت لها:

ـ آسفة، لا أملك غير الكتب لمواساتك، فحتى الكلام يخونني في كثير من الأحيان، أفضل أن يفهمني الآخر دون أن أقول كثيراً من الأشياء.

لم تعلّق، أظنها فهمت ما قصدت، ولكي أكسر صمتنا المفاجيء ذاك، سألتها:

ـ أيهما أحببت أكثر؟

أجابت:

ـ في الأدب يمكننا أن نحب أكثر من رجل.

قلت لها:

ـ لا يمكن... المرأة حتى مع الأدب تقيم علاقة سرية مع رجل واحد فقط، تفضل كاتباً واحداً، تبحث بين أبطاله عن نمط واحد فقط من الرجال هو الأقرب دائماً إلى رموز قلبها ولهذا ربما صعب عليّ أن أضع يوسف عبد الجليل في موقع مقارنة مع أي كاتب آخر.

ـ في هذه البلاد، حينَ ولا تخييش، رَبها واحد.

يفزعني غضبها المفاجيء، ترعبني عاصفة صيفها تلك التي تهب حين لا أكون على غير توقع بها.

يجتاح الطوفان مساحة ملامحها، تغرق في حزنها من جديد قبل أن تنقشع عنها غمامة الغضب بالطريقة الفجائية ذاتها، فتعيدني من حيث أقلعنا:

ـ هل تعرفين ماذا يعجبني فيه؟

ـ ماذا؟

ـ أناقته؟

ـ أنت تخرجين عن إطار النص؟

تفاجئني أكثر:

ـ أنظري إليه أليس أنيقاً وجذاباً؟ يشعل! (رائع!).

جمدت رجلاي، ضاع نظري بين الرجال، أيهم

الجذّاب، أيهم الأجمل، أيهم الذي تتناسب معه مقاسات روعة الكتابة؟ أيهم شارك في صنع قدري؟ أيهم...

انخفضت الضجّة وأصوات الباعة، انخفضت حركة السير، خمدت الأصوات، وتعطلت آلة الحركة.. وتوقف كل شيء عن الحياة إلّا هو...

كان يتقدّم نحونا.

أخ خ خ... ما هاتين العينين، ما هذه الهيبة، ما هذا الجبين الذي تنام فيه الدنيا... شعره أسود... إلى الوراء... يا الله.. كيف يصفون الرجولة حين تكون في هذا الكمال؟

قالت حنان:

ـ خشنة وخشوش على هذاك الشوشناش.. (خمسة في عين الحاسد على ذلك الشارب).

وانفجرت ضاحكة.

وكان شكلي مثيراً للضحك ربما، وأنا أحاول حفظ تفصيلاته. البحر يتدلّى على صدره، ربطة العنق الجميلة، والبدلة الأنيقة التي ترسم عرض الكتفين، قامته، حذاؤه الأسود البرّاق الذي لا خيوط فيه، لا أزرار، لا عقد، أملس، بسيط.

قالت حنان:

ـ الأزرق لونه المفضل.

قلت لها:

ـ حذاء الرجل شخصيته، أنظري إلى حذائه.

ـ la classe.

يبدو فعلاً كذلك، إنه رجل رفيع الذوق، بدون عقد، يحب كل الناس.

ـ c'est normal (طبيعي) رفيع الذوق، ألا تعرفين أنه كان متزوجاً أميرة.

ـ أميرة أميرة؟

ـ princesse يا شحاينتك وعلى راسها تاج، بصَّحْ étrangère (أجنبية).

ـ قاورية (غربية)؟

ـ لا أظن... قيل لي عربية؟

ـ وماذا بعد؟

لم تجبني، كان قد صار أمامنا بالضبط، استوقفته بطريقة مهذبة.

ـ صباح الخير monsieur عبد الجليل.

عبّت الفخامة من بين شفتيه.

ـ صباح النور أهلاً بن دراج.

ـ أقدّم لك صديقتي لويزا والي، تصوّر، شاوية تدرس الأدب العربي.

إبتسم وعلّق:

ـ هل عند الشاوية بنات بهذه الجاذبية؟

تساقط الثلج لا أدري من أين وغمرني.

مدَّ يده، صافحنا، قلت لمسة يده مستقرة في يدي، دفؤه، رائحته، تاريخ يده التي صافحت الرؤساء والوزراء و«الشخصيات» والفقراء، ولامست السلاح والورق والأميرات... يده...

سألها: ـ أين صرت؟

أجابته: ـ أنهيت تفريغ الشريط، سأحرّر الموضوع في المساء، وغداً صباحاً يكون عندك.

ـ غداً... لا.. سأسافر إلى العاصمة بعد ساعتين، دعيه لبعد غد. ودّعنا ولم يبتعد كثيراً، دخل مسجد عمر بن الخطاب.

ولم تنتظر حنان أسئلتي، قالت على الفور:

ـ سيصلّي العصر، ... هل تعرفين لو لم يكن مصلياً ومؤمناً بالله لما تركتني أمي أعمل عنده، فالوسط الإعلامي كله وسخ.

نظرت إليها معاتبة وقلت لها:

ـ تعملين عند يوسف عبد الجليل ولم تخبريني بذلك؟

ضحكت وقالت لي بعصبية مفتعلة:

ـ كُوليني خير، (كُليني أحسن) وهل أخبرتني أنت أنك معجبة به؟

شيء من الغضب انتابني:

ـ صرت تعرفينني، مشكلتي أنني لا أعرف أن أتكلم، لا أعرف أن أسأل، وبعض الأشياء، أخجل من قولها، وبعضها أراه من غير المجدي البوح به. . .

كانت تلك عقدتي فعلاً، الشيء الذي يجعلني أوفر الكثير من الكلام الضروري قوله، وألجأ إلى الكتابة حين لا أجد ما أقرأ لأنسى عقدتي تلك. ولهذا أعيش في خصام دائم مع نفسي، تماماً كما خاصمتها، في ذلك المساء.

كان يوسف عبد الجليل أمامي، صافحني وصافحته، عرفته بنفسي بطريقة تجعلني دائماً نكرة عنده، فيما كان بودي أن أقول له إنني قرأته بجنون وأحببته بجنون، أو أن أقول له إنني ابنة أخت أحد أصدقائه القدامى، لكنني كنت أخجل دائماً، من سلوك الطرق الفرعية التي تشوبها الشبهة أحياناً لبلوغ ما أحب. ولهذا اكتفيت بالابتسام بدل قول ذلك.

لم أكن أمامه غير «لويزا والي» التي لا يعرف عنها أي شيء، والتي لا تمثل أكثر من شاوية تنسلخ من بربريتها شيئاً فشيئاً وهي تدخل عوالم الأدب العربي، دونها بعض الجاذبية كما قال.

وقفت بسرعة نحو المرآة، أتأمل وجهي، أين رأى الجاذبية؟ إنه لبق لا غير، أين لي بالجاذبية، شعري قصير كشعر الذكور، جسمي نحيل أخفي تفصيلات أنوثته بكنزة صوف سميكة، وجينز وحذاء جلدي ضخم هو أقرب إلى أحذية الذكور.

تذكرت ابن خالتي جمال الدين حين قال لي ذات مرة:

ـ إنك بشعة جداً يا لويزا، أخاف عليك من العنوسة؟

وقلت له بغيظ يومها:

ـ لا تخف علي، ما يْجيك شرّ؟

فقال بلؤم مستحب منه، مستدركاً كأنما تذكر أنه تجاوز حدود أنوثتي التي تجعلني لا أختلف عن الأخريات.

ـ طبعاً، لا أخاف عليك، فإذا لم تتزوجي، تطوعت أنا في آخر لحظة لأنقذ الموقف.

آه... جمال، هناك رجل في هذا العالم، قال لي أخيراً إنني جذابة، ودخل مسجداً ليصلي.

ذاك الذي كان حلماً أستسلم له قبل النوم، ذاك الذي

كان سطوراً من حبر، ها هو اليوم من لحم ودم يوقظ أنوثتي التي طالما رفضتها، بكلمة لم يقصدها تماماً.

وها أنا أرتمي في حضن لغته ومدينته، جديدة متجددة، متقدة الروح، ثائرة ومتمردة.

ها أنا أصحو باكراً، أستقبل الصباح مغرّدة مثل الطيور وأخرج نحو المدينة أشمّ رائحته، أمرّ بكل تلك الأشياء التي أوحت له بالشعر والثورة وأقاصيص الحب.

أتذكر لمسة يده، أشمها، فيحضرني عطره الناعم الذي عبر كل ممرات القلب، وفتح نوافذها على الدنيا.

لمسة يد...

أيمكن للإعجاب أن ينتهي عند لمسة يد، ليبدأ الحب بالرقص على هواه؟ هل نحن من نهيء أنفسنا للحب، فنقع فيه في الوقت الذي نحاول أن نعالج كسور الداخل وجروحه، أم أنه يأتينا من الأبواب الورائية لقصور أحلامنا، حين ننفض أيدينا من ذلك الحلم الذي يئسنا من انتظاره، ونقرر أن نرضى بالنصيب.

لا...

ليس هذا ما كنت أريد.

لم أكن أرغب في التورط في حبه، الحب لا يمكن أن

يبدأ من لمسة يد، لا يمكن أن يبدأ بين امرأة حالمة، ورجل مشغول عن طفولتها تلك بقضاياه الكبرى...

لا يمكنني أن أتسلل إلى حياته المملوءة لمجرد أنني أردته... ووجدته كما أريد...

لا يمكنني...

لا يحق لي أصلاً... أن أدخل بين جدران قضاياه، وأخلخل ذاك البناء الشاهق لأني لم أصادف أي واحد من أشباهه الأربعين بل صادفته هو نفسه.

ثم لا يمكنني أن أعلق كل تلك الصدف على القدر.

القدر بريء منا أحياناً، بريء من نياتنا، لكنه يجد المتعة في مسايرتنا، ووصل بعض الدروب ببعضها أوقاتاً، وبعض الأشخاص ببعضهم أحياناً ولو عن طريق شاشة، أو كتاب، أو هاتف خاطئ... ليصبح العالم صغيراً كما يقول الفرنسيون.

هو صغير صغر هذه الدائرة التي تجمعنا الآن، والتي عمداً صرت أحاول تضييقها أكثر...

عدت إلى رواياته كلها، أبحث عن نسائه، ماذا يرتدين، كيف يتحدثن، كيف يغازلن الرجال، كيف هن، كيف دلالهن... الكتاب لا يعرفون أن يكتبوا عن غير حبيباتهم، ونسائهم العابرات ويحضر خيالهم لحبك القصة

لا غير، لأنهم أكثر قدرة على تفكيك أمور الحياة وإعادة تركيبها بطريقة تختلف. الأدب في النهاية ليس خلقاً، إنه عملية تفكيك وإعادة تركيب لا غير. فأيهن حبيبته وفق هذه اللعبة التي لا تنتهي.

ما أكثر نساءه... ما أكثر الراتهن.

فأين لي بخريطة قلبه التي جمعت الشرق والغرب، وأين لي بمفاتيح إناثه، وهي موزّعة بين «جميلات الجزائر»، و«فتاة شيراز»، و«مارغريت»؟

تحت أي قصة من هذه القصص سآخذ أنفاسي، تحت ظلال أي مدينة من مدنه سأتوقف عن رحلة البحث، قسنطينة، أم القاهرة، أم أضيع في بيروت وباريس؟..

أي رجل هذا الذي تعثرت بتاريخه، وجعلني أرتدي أنوثتي، وأحمل دفتر انفعالاتي وأركض إليه.

قالت لي حنان حين رأتني مرتبة الهندام، أرتدي فستاناً على غير عادتي، وأضع قليلاً من أحمر الشفاه قبيل الذهاب معها لمقابلته.

لنقل فيها «إنّه»...

لنقل.. ثمة ما يحرّكنا في الأخير نحو أنفسنا. فلم يعد باستطاعتي ان اتنكر لانوثتي او أن أسير مغمضة العينين نحو فخ من فخاخ شاب مثل ابن العم.

يوسف ذاك الرائع...

ذاك الطيف، أقف أمامه، وكأنني أمام مرآة تعكس صورته، كلما مددت يدي لألمسه مرة أخرى أجد الزجاج يفصلنا عن بعضنا بعضاً.

لتقل فيها «إنّه»...

لقد حلمت به، لكن، كيف لي أن أخترق الزجاج؟

ذاك المكتب الذي يعجّ بذاكرته. تلك السنوات التي بلغت سُلّم الرهبة.

ذاك العنفوان...

كان مكتبه مفتوحاً حين وصلنا دار الصحافة في العاشرة صباحاً وكان مرتباً ونظيفاً، وعلى الجدار صورة للرئيس هواري بومدين، لا أظنّه وضعها للصداقة التي كانت بينهما، ولكنها العادة عند أغلب الجزائريين.

«الجزائر يحكمها بومدين من قبره».

لم يمت في قلوب الناس.

لم تمت «خزرته» (نظرته)، تقطيبة جبينه، قسوة ملامحه، وحبه الأبوي للشعب، وأظنّه انتظر مثلنا عهد الديموقراطية ليعود إلى الحياة، ويطلّ على ضياع شعبه من بعده من خلال صورة! سألت حنان:

ـ أين تنتظره؟

أجابت:

ـ في مكتبه.

ـ ألا ينزعج؟

ـ لو كان ينزعج لوضع سكرتيرة أمام الباب، مكتبه مفتوح للجميع، هو يحب ذلك.

كيف يمكن أن يتشابه الشخص بأشيائه، فتشملها مشاعرنا لأنها له، كيف تبدو صلابة صلابته، وناعمة نعومته، ومسيلة فينا لكل شلالات الرغبة.

مرّرت يدي على مكتبه أتحسّسه، وكأنني ألامسه هو.

تحسّست أوراقه وأقلامه، وهاتفه، ما أسعدها وهي تعانق أصابعه وتتنفس أنفاسه، وتلثم كلماته كل يوم!

وجدت أحد أدراجه مفتوحاً، ألقيت النظر بفضول عليه:

سجادة صلاة ومصحف.

استدرت نحو حنان لأسألها، لكنها كانت منكبّة على أوراقها تعيد قراءتها بصوت خافت. فكتمت السؤال لغير حين... في تلك اللحظة تعرّفت إلى توفيق.

وبين أشياء يوسف، بين ما كتب، وما تبقّى من آثار يديه، وقدميه وأنفاسه، وما تسجّل من فرحه وغضبه، وما حوت ذاكرة تلك الغرفة من انفعالات؛ دقّ الباب المفتوح

دقة واحدة، ألقى التحية ومازح حنان ماداً يده لمصافحتها.

ـ ماذا أحضر «شارلوك هولمز» اليوم؟

مازحته هي الأخرى وهي تشدّ على يده:

ـ أحضرت كاتبة قصة لوالدك، وعروساً لك. وأشارت إليّ.. يا للمزحة!..

كأن ريحاً هبّت من أسفل قدمي ورفعت بالفستان إلى أعلى. اعتدلت في وقفتي وابتلعت ما طفح من الخجل على وجهي وأعضاء جسدي كمن يبتلع ملعقة من زيت السمك.

نظرت إليها،

ماذا عسى أن تفعل النظرة أمام جرأتها.

مدّ يده، وسارعت إلى تقديمه لي بطريقتها:

ـ توفيق عبد الجليل... فيلسوف زمانه.

قلت له:

ـ لويزا والي.

ولم يعطني وقتاً لأفكر بشخصه، كان قد اختصر كل المسافات نحوي.

ـ لويزا والي اسم جميل.

قلت لنفسي: «هؤلاء القوم يجاملون بالوراثة».

لكنه أردف:

ـ يناسب الأدب.

ترددت قليلاً ثم قلت له:

ـ قد يناسب الأدب، لكنه لا يناسب عائلتي إذا دخل عالم الأدب سأبحث عن اسم مستعار.

قال:

ـ سيىء جداً أن نحترق من أجل أسماء ليست لنا، لأنها في الغالب تلغينا، تتمرّد على الأصل، تعيش هي ويظل الأصل نكرة.

ـ هذه وجهة نظر!

كانت حنان مشغولة عنا بأوراقها، تقرأ، ترقم، تشطب بعض الكلمات لكن رادارها يلتقط كل شيء.

قالت قبل أن أجيب:

ـ «اسأل مجرّب ولا تسأل حكيم».

ابتسم وقال:

ـ عبد الجليل ليس بلقبنا الأصلي، إنه لقب مستعار، كان لقباً ثورياً اختاره والدي لنفسه، ثم أدبياً، ثم أرسى قواعده ومدّ الجذور.

فتحت فمي، فتحت الدهشة أزرار فضولي:

ـ كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

أجاب:

- مثلما حدث مع قاصدي مرباح، مع هواري بومدين، بـومـديـن voilà c'est un bon exemple (مـثـال جـيـد)، هـو مناضل، وزوجته كاتبة، استعارت اسم نضاله، وقد وافقها جداً.

- أنيسة بومدين؟

- أنيسة، حتى حين طمست ذكرى بومدين في عهد الشاذلي، ظلّت تذكرنا به علناً، أظن بأن أحسن شيء يمكن أن يحدث لنا حين نعطي اسمنا إلى كاتبة أو كاتب.

- تجرني إلى موضوع آخر الآن.

وكان يحاول أن يقول شيئاً آخر حين سمعنا دقة واحدة على الباب، تبعتها «السلام عليكم» بذلك الصوت الفخم. والشعور نفسه انتابني حين رأيته لأول مرة، انشق صدري نصفين، نزل الدم إلى أسفل قدمي، ثم صعد دفعة واحدة إلى رأسي.

والذي حدث حينها أنني أمام النسخة الأصل لرجل كثيراً ما حلمت به. فكيف لي أن أصدق بعد اليوم أن لا أوراق تبوتية لأحلامنا، وأن لا نقاط تقاطع بيننا وبينها؟ كيف لي أن أتماسك أمام ذلك الجسد وتلك الروح؟

أمامي كان، ولا شيء أبعدني عنه غير تلك السنوات التي أضيفت إلى عمره في غيابي.

كنت قد حصلت على إحدى الجرائد، من مكتبة الأرشيف بالقصبة، تقول إنه ولد في السادس عشر من جويلية في العام ستة وثلاثين. لست أكثر من نصف عمره الآخر إذن...

فقد أجريت مباشرة تلك العملية الحسابية بيننا:

وبيني وبينه عمر من السنين، وأربعة أشهر، وأربعة أيام،

مرة أشطب الأيام، ومرة أشطب الأشهر، ومرة أعتبرها ستة معاً فأشطب سنة من ذاك الفرق بيننا. كأنّ ما بيننا سيرسخ على وثيقة حب...

رحت أبحث عن أي علامة أخرى تربطنا ببعضنا بعضاً.

قفزت إلى كتاب الأبراج لمبصرة فرنسية، قلت لنرجس بحماسة:

ـ عظيم برجه السرطان.

ضحكت نرجس وقالت لي مازحة:

ـ رَبّي يهْدِي.

بحثت من جديد عن اليوم الذي وُلد فيه.

ـ إنه خميس.

ـ عظيم.

قلت:

ـ ليس عظيماً، أنا مولودة يوم الاثنين، هذه معاكسة من القدر!

أدهشتني يومها بإجابتها:

ـ إنها مغازلة، صوميهما معاً كما كان يفعل الرسول (ص) وستشعرين بالوحدة بينكما، لقد كانا أحب يومين إلى الرسول (ص) بعد الجمعة.

قلت لنفسي:

ـ يا للعفريتة، فتحت عليّ باباً آخر للغوص في ذلك الحلم.

ألقيت رأسي على المخدة، وتوقفت عن عملياتي الحسابية اللامجدية تلك، وقلت في نفسي، لو تعلّقت بالكاتب رشيد ميموني لوفّرت على نفسي الحساب إذ ولدت في اليوم نفسه الذي وُلد فيه.

كنت أسترجع تلك الأشياء فيما حنان وتوفيق يتناقشان في أمور إحدى الصفحات مع يوسف عبد الجليل.

وفجأة، وكأن كل شيء كان مرتباً لأن أدخل معه في حديث حميمي خاطبني مباشرة:

ـ انتهينا مع المشاغبة، فماذا في جعبة صديقتها؟

خرجت حنان وتوفيق.

فإذا بي على انفراد مع فارس.

مددت له دفتري والخجل يبعثر كلماتي ويضخ الدمّ إلى وجنتي وخياشيمي... قطع عليّ النفس.

لم أقل له شيئاً، كنت قد قلت له أكثر مما يجب أن تقول امرأة لرجل في نصوصي.

أشعل سيجارة بيد، وأمسك دفتري بيده الأخرى، وبدأ يقرأ من أول صفحة.

لاحظت، أنه أمسك السيجارة بيده اليسرى التي يزيّن أحد أصابعها خاتم، وأنه ظلّ يمسكها دون أن يسحب منها نفساً.

وكنت أظنه سيقرأ قليلاً ثم «يوزعني»، كأن يقول لي مثلاً عودي بعد أسبوع لأعطيك رأيي، أو عودي غداً، أو سأعطيك خبراً حين أقرأ ما كتبت... لكنه ظلّ يقرأ ويقلب الصفحة بعد الصفحة.

أمطر جبيني بغزارة، وهجم البرد على أصابعي.

جبينه هو، كان مساحة واسعة تنط فيها غزالة واحدة، رشيقة تلهو بجسدها الضاحك بدلال...

ابتسم... قلب صفحة أخرى، تمطّط الزمن على

قفاي، حتى كاد رأسي يسقط من بين كتفي، وأنا أحملق في جذبه تلك. . .

ابتسم أكثر، ابتسمت عيناه، ضحكت ملامحه، ازداد شارباه سواداً حين أطلّ الثلج بزيح جميل يفصل سنيه الأماميين، من تحت شفته العليا.

كان صوتي الداخلي يقرأ عليه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①. . .﴾.

قال لي:

ـ لا يمكن أن تكون هذه محاولات أولى في الكتابة. أكتبي.. أكتبي المزيد. . . قلمك حلو يا لويزا.

ـ قلمي حلو؟

أكد لي مرّة أخرى:

ـ قلمك حلو فعلاً.

استجمعت كل ما كان لديّ من شجاعة وقلت له:

ـ تصوّر، خالي سيموت غيظاً من التحاقي بمعهد الأدب؟

فقال:

ـ أهناك شخص في هذا العالم يمقت الأدب إلى هذه الدرجة؟

قلت له:

ـ كانت أمنيته أن أكون طبيبة مثل جدي.

ـ جدك طبيب؟

ـ حتماً سمعت به، كان من أطباء الثورة، لم يعش كثيراً استشهد شاباً.

انتفضت غزالة جبينه، بدت أربعاً، رفع حاجبيه قليلاً وبدا الاهتمام شاذاً أشرعة عينيه حين سألني:

ـ ما اسم جدك؟

أجبته:

ـ أحمد ملكمي.

اجتاحه الفرح دفعة واحدة، وقال:

ـ خالك عبد الحميد؟

ها قد بلغت القمة، فأين الهواء، أين الهواء؟

ـ هو... نعم.

ووضع السيجارة على المنفضة، وفرك ذقنه بحركة خفيفة برؤوس أصابعه ثم قال:

ـ أما زال حزيناً كما كان، أم تغيّر؟

أجبته:

ـ كيف يغادره الحزن، وكل أحلامه تضيع على مقربة منه؟ أنا آخر من طعنه، ولكن من غير قصد فلا أحد فهم نوع العوق الذي أعانيه... أعني اللغة...

ـ وماذا يفعل الآن؟

ـ فتح محلاً للتصوير ومكتبة.

ـ فضّل اللغة التي يفهمها الجميع.

ـ أنا أكره اللغة الفرنسية.

ـ لا أحد يحبها الآن. لكن مشكلة الفرد الجزائري أنه لا يفرّق بين الانتماء وبين اللغة، بين الدين وبين اللغة، مثلاً يحب العرب ظناً منه أن كل العرب مسلمون، ولا يمكنه أن يفصل بين الإسلام واللغة العربية، فالفصل بينهما يعني الكفر أو الانضمام إلى كفة فرنسا. وهذه فكرة نمت عندنا أثناء الوجود الفرنسي الذي دام 130 سنة، يعني يلزمنا قدرها من الزمن لنتجاهل الجرح الفرنسي المحفور في ذاكرتنا ونفهم الأمور على حقيقتها، قليلاً ثم أردف.

ـ كان لي صديق لبناني اسمه بول جدع اصطحبته معي في أوائل الاستقلال لزيارة الجزائر. ورغم أنّ اسمه بول، إلا أنه لم يخطر ببال أحد أنه مسيحي وليس مسلماً، لسبب بسيط هو أنه عربي، وأحبه الناس لدرجة أن أحد جيراني أصرّ أن يعلّمه الصلاة لأن رجلاً في سنّه حسب اعتقاده يجب أن يقوم بفروضه كاملة، وقد اصطحبه إلى المسجد عدة مرات.

دوت ضحكته القوية، ضحكت أنا الأخرى، تعانقت

أصواتنا في فضاء المكتب، وقد كنت مشدوهة كيف فعل الرجل ذلك، سألته فأجاب:

ـ لم يكن بإمكانه أن يحرجهم وقد أحبهم وأحبوه إلى ذلك الحد ففضّل مسايرتهم، وهذه عادة اللبنانيين عموماً، وخطر ببالي أن أغوص أكثر في خصوصياته فسألته:

ـ عشت كثيراً في لبنان؟

أجاب:

ـ لا . . . كنت أزوره من حين لآخر، أيام عشت في القاهرة، «ولكنني كنت أعود مديوناً دائماً من لبنان».

وكأن الحنين استيقظ في داخله، خفّت نبرة صوته، واستلقى على كرسيه أكثر، وأرخى رأسه إلى الوراء قليلاً ثم قال:

ـ ولادتي كانت في القاهرة.

فهمت ما يعنيه مباشرة، فقاطعته:

ـ حين كتبت «فتاة شُبْرَا».

واصل الحديث بالنبرة نفسها:

ـ لأن ولادتي الحقيقية كانت في «شُبرا». نحن لا نكتب إلّا إذا كنا في حالة عشق.

لم أكن أتوقّع أن يصل أول حديث بيننا إلى هذا

المتمرع الساخن لكنه وصل، بأسرع مما توقعت، استرسل في الكلام فقال:

ـ كانت بحجمك، وعمرك وكان شعرها قصيراً مثل شعرك، مشيت وراءها وأنا لا أعرف أنني أمشي وراء الأدب، أوصلتني إلى «شيراء» متيماً بالعشق ومن هنا افترقنا أنا وبومدين، تركته في الأزهر، ليبقى فيه، وأنا التحقت بكلية الآداب. تصوري من «الكتانية» بقسنطينة إلى الأزهر بالقاهرة لا شيء استطاع أن يفرّقنا إلا بطلة أدب.

كنت أحلم على مسافة قليلة منه، أصغي إلى طبول قلبي التي أعلنت فجأة أن تزف مزيداً من الارتباك لخوفي السابق.

وأظنني تصرّفت أمامه كأي فتاة تافهة، فقد مددت له دفتري وأنا أرتجف، وبعد أن قرأ منه بضع صفحات وقال لي قلمك حلو، لم أعرف كيف أرد، لم أعرف أن أصوغ جملة واحدة بالإمكان أن تفهم، وفي الأخير شكرته وخرجت وأنا أترك ما تبقى من ملامحه على ابتسامة فيها الكثير من الاستفهام.

كنت أجهل تماماً لماذا تصرّفت بتلك السلبية، وما زال أنمي إلى اليوم هو نفسه، منذ ذلك اللقاء الأول بيننا

والذي لم أعرف أن أبيّن له فيه أنني قارئته الأولى على الإطلاق وأنني أذكى مما يمكن أن يتصور.

كنت أجهل تماماً ما إذا كان حبي الكبير له هو الذي جعل أجهزة جسدي تفقد السيطرة على وظائفها في اللحظة التي تهيأت لها طويلاً؛ لطالما وقفت أمام المرآة أخاطب نفسي على أنني أخاطبه، لطالما كرّرت ذلك الدور مع نفسي، كلما كنت وحيدة في الغرفة، وقد ظننتني أتقنته.

فما الذي حدث إذن؟

ما الذي أصاب لويزا والي القوية، التي تستنجد بها صبايا الحي في المواقف الصعبة؟ ما الذي أصاب «عيّشة رجل» كما تحب أغلبهن تلقيبي؟

لكأنني في ذلك الموقف، كنت أقلّد فاتن حمامة في أكثر أدوارها نعومة وعشقاً وضعفاً.

كنت فعلاً حمامة، بجناحين صغيرين وجسم يرتعش. كم يلزمني من الوقت اليوم، لأنسى حسرتي على تلك الفرصة التي أضعتها بغباء؟

كم يلزمني من الصمت أيضاً، من التفكير، ومن التحضير لمرة مقبلة قد لا تتاح لي فيها الفرصة للحديث معه؟

سألت حنان متى تعود؟

فأجاب عنها ترفيق:

- إنها مثل مسمار جحا في دار الصحافة، اسأليها متى لا تأتي.

وبدأ المزاح بينهما إلى درجة حسدتهما فيها على ذلك المرح، أمّا أنا انقلب انزعاجي من نفسي على الفستان الذي ارتديت،

إذ لم تنفعني أنوثتي في النهاية.

كان تنكري الذكوري يفيدني في هكذا مواقف بنسبة أكثر.

■

شُغلت بالامتحانات بعد ذلك اللقاء الفاشل، ثم جاءت عطلة نصف السنة فلم أرافق حنان مرة أخرى إلى دار الصحافة، لكني لاحظت أن مصادفاتي بترفيق كثرت.

تحت المطر، كان يمسك مظلته وينتظرني أمام بوابة جامعة الأمير عبد القادر المقابلة لبراية «نحاس نيل».

وقد صدّقته عدة مرات، أنه ينتظر باص «بوصوف» أو باص «فيلالي» المتجهين إلى ملعب «بن عبد الملك» وهو أقرب موقف حافلات إلى بيته في «سان جان».

نرجس التي تلقبه بـ «رجل المظلة» لفتت انتباهي إلى

شيء آخر، حين صار يتزامن وجوده بمكتبة جامعة عين الباي حيث أدرس مع وجودنا فيها...

وقد فكرت أن أستفسر من حنان عن الموضوع، لكني فضلت أن أفعل ذلك بعد العطلة.

■

أريس بلدة بليدة خصوصاً في الشتاء، لا تورّط أناسها كثيراً في تفصيلاتها اليومية، لكنها تنزل ثقيلة على الصدر، ثقيلة في الغالب، لذلك أفضل أن أظل في البيت طوال أيام العطلة كما كل الصبايا. أختفي عمّا يُقال، أتوارى عن الشائعات التي تشك الدبابيس في رؤوس الصبايا والشبان، وعن تلك الأحاديث اليومية التي تتخذ الماعز، وطعام الماعز، والحقول، ومواعيد السقي والطقس ومشكلات الحياة موضوعات للمناقشة كأنما لم تكن ذات يوم قلب الأوراس العظيم، وقلب ثورة عظيمة، وأنجبت رجالاً قساة صاروا أبطالاً نسيهم التاريخ. أحب أن أهرب من هذه الحقيقة أيضاً التي تبيّن كم نحن لا نبالي بالتاريخ. أحتمي بمكتبة خالي حميد، أو بالشاشة الصغيرة أبحث عن ملامح بطل لي يخفف من شعوري المستمر بالخوف والوحدة.

أذكر جيداً أن المطر بدأ خفيفاً بالسقوط ثم اشتد، وأن

البيت كان دافئاً، حوّلني إلى قطعة خبز تفوح منه رائحة العشق.

في ذلك المساء...

جلست مع أمي نشاهد فيلم «بائعة الجرائد» من بطولة يوسف شعبان وماجدة، الفيلم الذي شاهدته للمرة العشرين ربما أنا وأمي، وللمرة العشرين تبكي والدتي عند اللقطة نفسها مرة حين ينفصل البطلان ومرة حين يلتقيان في آخر الفيلم.

للمرة العشرين لم تعد تعنيني أحداث الفيلم في شيء، بقدر ما يعنيني التمتع بأداء يوسف شعبان...

أداؤه... يوسف...

أتذكر...

دخل مراد لاهثاً وقال:

ـ لقد استقال الشاذلي.

لم أصدق، سخرت منه، وقلت له:

ـ استقالة في الشتاء، «تركنا»...

وعيناي ما زالتا على التلفزيون.

أعاد ما قال مرة أخرى:

ـ أقسم بالله، لقد استقال، وقد أذاعوا ذلك بواسطة الراديو والتلفزيون، ألم تسمعوا ذلك؟

قالت «زيتونة»:

ـ ليفرح عباس مدني، مسمار جحا تنحّى.

ونطق خالي من الجانب الآخر للصالون حيث كان يجلس مع سليم يشرح له بعض الدروس.

ـ نساء الجزائر يعرفن كل شيء عن مصر والمواطن المصري، ولا يعرفن شيئاً على الإطلاق عمّا يحدث في الوطن.

كان يقصد تعلّقنا الزائد بالنتاج المصري، لكني علقت على كلامه بطريقة أخرى مقصودة أيضاً:

ـ والرجل الجزائري لا يرحم، ولا يترك رحمة ربي تنزل، ليستقل الشاذلي ما المشكلة، يوم نُصب رئيساً لا أحد استشارنا، ويوم استقال أيضاً... «فراشه (انتهى الأمر).

فقال مراد:

ـ هنا عندك الحق.. لهم دينهم، ولنا ديننا، لكن حبكن لكل ما هو مصري لا أسانده، فبيننا ثأر دائم في كرة القدم...

قلت له وقد بدأ توتري:

ـ دعني أنهي مشاهدة الفيلم، والثأر كما تريد.

صرخ في وجهي:

ـ ألا تملّين من مشاهدة هذا السيد كل يوم...
وصرخت في وجهه أنا الأخرى...
ـ لا أمل، وبعد ساعة سأشاهده في مسلسل «المال والبنون» غصباً عنك، من حقي أن أشاهد ما أريد...
ـ لا ليس من حقك.
ـ من حقي، وإذا لم يعجبك حاول شراء تلفزيون وضعه في غرفتك...
دائماً، هناك سبب ما ليأخذ النقاش بيننا شكل المشاجرة بشأن التلفزيون منذ دخل «البرابول» بيوتنا.
خالي يحبّ أن يبقى عندنا أغلب الوقت بعد العمل، كأنما يهرب من مواجهة حزنه على انفراد في شقته ولكنه يبحث عن مزيد من الأحزان عبر الفضائيات من محطة أخبار إلى أخرى دون أن يعي ذلك.
أخواي مراد وسليم يركّزان على ما تقدّمه القنوات الفرنسية ككل الذكور في كل البيوت،
ونحن النساء لنا مصر.
والصحيح أن النتاج المصري فسحة لعواطفنا أمام قلة النتاج الجزائري الذي نشتاقه ولكنه لا يجيء...
مصر تعوّض ذلك النقص فينا أيضاً،

فبين عاشقين جزائريين لا نسمع كلمة حب... لأنها عيب.

كنت أتنصت ذات يوم على ابن خالتي جمال الدين وهو يغازل ابنة الجيران التي تزورنا من أجله، ويزورنا من أجلها قال لها:

ـ هل سمعت راغب علامة البارحة وهو يغني «راجع لعيونك بالليل»؟

تنهدت وقالت له:

ـ سمعته.

قال لها:

ـ إذاً فقد سمعت كل ما كنت أريد أن أقوله لك.

سألته بدلال:

ـ أصحيح تحبني إلى هذه الدرجة؟

انتفض وخفض صوته قائلاً لها:

ـ ششششت... هل تريدين الفضيحة؟

في الجزائر... نحتاج دائماً إلى ناطق رسمي يترجم عواطفنا.

نحن أميون حين تتعلق المسألة بلغة الحب.

قلت ذلك لجمال الدين ذات مرة.

ضحك وقال:

ـ هذا يؤكد لي أنّ بينك وبين العواطف أسواراً متينة لا تُخترق.

استغربت.

ـ لِمَ تقول ذلك؟

فأجاب:

ـ تضعين صورة يوسف شعبان عند رأسك، تحضرين أفلامه بشكل مرضي، تحبّين محمود المليجي، وتوفيق الدّقن، وربما هتلر، وجنكيزخان وكل أشرار العالم، وتسمعين فيروز التي لا تهتز ولا تبتسم إلّا بالقطارة فيما من المفروض أن تفعل العكس وهي تغنّي أكبر مدينة للعشق في العالم وتقرئين يوسف عبد الجليل الذي لا ينسى أن يخصص حيزاً كبيراً للشر في كتاباته؛ كل واحد من هؤلاء ناطق رسمي لعواطفك أظن... ذكرني ذلك بحديث آخر بيني وبين توفيق، حين اعتذرت عن حضور حفلة بالجامعة كان يودّ أن أحضرها معه.

قلت له:

ـ سأذهب إلى حنان، سنحضر فيلماً معاً.

يومها سألني:

ـ أي فيلم هذا الذي يحولك عني؟

يومها أدركت أن تخمينات نرجس حول «رجل المظلة» كانت صحيحة ومع هذا أجبته باختصار يثير الاستفزاز:

ـ الطريد.

فاجأني بما يثير أكثر:

ـ تعتذرين للمرة الثانية على دعوة أوجهها لك بحجة حضور الفيلم نفسه، لماذا تتهرّبين مني؟

أجبته غير مكترثة لغيظه:

ـ هل فعلتُ ذلك فعلاً؟

قال:

ـ فعلتِ ذلك.

قلت له:

ـ لكنني أحب هذا الفيلم.

فقال لي:

ـ كم أنت مراهقة.

وفي اليوم التالي تركتني نرجس قبل أن تدخل الحي وقالت لي:

ـ رجل المظلة هنا.

كان الرذاذ خفيفاً جداً، لا يستدعي فتح مظلة، لكنني حين قطعت الطريق نحوه، فتحها، رغبة منه في اختصار بعض المسافة بيننا. قال لي ما فاجأني في ذلك المساء:

ـ لم يعجبني الفيلم.

كدت أقول له عن أي فيلم يتحدث، لكن بديهتي تحركت بسرعة، فتذكرت:

ـ آ آ آه. . . الطريد؟

سألني:

ـ أعرف أنّ الأذواق لا تناقش، لكن يشرفك ما الذي يعجبك في أدوار الشر؟

قلت له:

ـ حنان ما تتألق في قمتها فوله.

قال:

ـ الحق عليّ أنا فأنا الفضولي وليست هي، أردت أن أرى من ينافسني فيك.

قلت له وأنا أصطنع ابتسامة:

ـ وعرفته أخيراً.

فقال:

ـ سررت بمعرفته، لكن الفيلم قديم. ودور فتاك الأسمر لا يناسب ذوي المشاعر الرقيقة. . .

قلت له:

ـ أفهم من كلامك أنك من ذوي المشاعر الرقيقة؟. . .

ابتسم، وقال شيئاً بعينيه قبل أن يقول لي:

- لماذا تحبين أدوار الشر؟

فقلت له:

- لأن كل الناس في الأخير يتقنون أداء أدوار الطيبة، أنا، أنت، وكل الناس الذين أمامك، بما فيهم اللصوص، والمجرمون، والقتلة، فكلنا ممثلون في النهاية، لكن الفنان الحقيقي بإمكانه أن يجسّد أدوار الشر بإتقان، لأنه فوق قدرته في تقمّص الدور يمتلك جرأة أكثر من غيره لتحمّل مسؤولية الفن ومواجهتنا ببشاعة الشر الذي يختبئ فينا.

كان ينظر إليّ بطريقة لم أعهدها، شعرت في اللحظة ذاتها أنه توغّل في عيني، تسلّل إلى داخلي، فتح غرفي السرية، وبعثر أشياءها كما يريد.

ارتبكت ونظرت إلى ساعتي، وكأنني أستعجل إنهاء ذلك اللقاء القصير.

فقال لي:

- اقتنعت بما قلت فلماذا تستعجلين؟

ابتسمت وقلت له:

- للسبب نفسه.

ضحك هذه المرة وأشار بسبابته إلى أنه عرف السبب وقال:

ـ فتاك الأسمر؟

ضحكت وأجبته بحركة من عيني، ثم افترقنا.

يومها كان مسلسل «عائلة والدراويش» قد بدأ، وكان دوره مختلفاً فيه، كان عاشقاً في خريف العمر، وكان أجمل شيء فيه على الإطلاق قدرة عينيه على قول الحب، وقول الألم، والفرح، تماماً كما كانتا تقولان الشر والخبث والجبروت.

■

كنت قد ابتعدت بأفكاري عما يحدث في البيت، فقد أخذ النقاش حدته حين بُثَّ موجز قصير يعلن فيه أن الرئيس سيوجِّه خطابه للأمة يشرح فيه أسباب استقالته.

وكالعادة.. كان مراد أكثرهم استفزازاً لخالي بأفكاره، وآرائه، قال خالي:

ـ كنت أعرف منذ البداية أن هذا الرجل الطيب ليس له علاقة بالرئاسة ولعبة الكبار.

ردّ مراد بحدّة:

ـ بالنسبة إليك بن بلّة طيب، بومدين طيب، والشاذلي طيب وكل رؤساء الجزائر القادمين طيبين كأنك لم تكن صحافياً سابقاً وتعرف ما يجري في كواليس الدولة.

أجابه خالي:

- لو لم يكن طيباً لكانت له حاشيته التي تثبته في الحكم مائة عام بانتخابات أو بغير انتخابات.

قال مراد:

- عن أي انتخابات تتحدث، هل تقصد الكرنفال الأخير الذي أساؤوا تنظيمه؟

قال خالي بنبرة غضب:

- إيه. . . كرنفال. . . لا أحد سيقضي على الجزائر غير سخريتكم أنتم الشبيبة من كل شيء، صدق بومدين حين قال: إن الشعب الجزائري بحاجة إلى من يفرض عليه النظام. . . la discipline أسي محمد.

ردّ عليه مراد:

- يعني أنك مع النظام العسكري؟ كلكم الجيل السابق تريدون دولة بوليسية.

ردّ خالي:

- الكل يحب النظام، إلّا العرب يحبون حياة الصحراء والبراري، كل أشكال النظام يسمّونها قمعاً ودكتاتورية. . .

وما كان النقاش ليتوقّف، ولهذا انسحبت إلى أوراقي وكتبي، إذ لم تكن السياسة تعنيني، أما «زيتونة» و«وداد» فقد كانتا تعشقان تعليقات خالي وانفعال مراد، وكانت

أصواتهم تصلني بين صراخ وضحك ولحظات هدوء متقطعة.

على مكتبي الصغير استسلمت لرائحة الورق والحبر وموسيقى «كلايدرمان»، كان عالمي مختلفاً عن الكل.

كان لي «مزاج مراهقة» كما كان يقول لي توفيق دائماً بسبب تلك الأحلام التي لا تكف عن مجالستي وفصلي عمّا يحدث في الدنيا...

توفيق...

في تلك اللحظة تذكرته، ركضت إلى حقيبتي وأخرجت كتاب «شرق المتوسط» لعبد الرحمن منيف، رحت أتصفحه بسرعة، كان توفيق قد كتب لي رقم هاتف البيت على إحدى الصفحات حين وجدني بالمكتبة غارقة في مطالعته.

انحنى دون أن يقاطعني وكتب الرقم بالقلم الرصاص، نظرت إليه مبتسمة، فقال لي:

ـ استمتعي بالقراءة الآن، واتصلي بي فيما بعد، أريد أن أسمعك تحدثين.

قلت له يومها: إنه كتاب يثير البكاء.

فقال لي: واصلي البكاء إذاً، وذهب.

لم أتذكره يومها، وبعد يوم كانت العطلة ولهذا نسيت.

لعلّه غاضب مني الآن بسبب هذه اللامبالاة، ركضت

إلى الهاتف، كان النقاش متواصلاً في الصالون بين خالي وإخوتي، أمّا أمي فكانت في المطبخ مشغولة بتحضير شيء ما وتغني مواويلها البربرية المعهودة...

حملت التلفون وعدت به إلى غرفتي.

لكن الذي حدث أن صورة يوسف عبد الجليل هي التي أطلّت عليّ حين حملت السماعة وهممت بطلب الرقم.

ماذا لو ردّ هو على الهاتف؟

حتماً ستحل بي الكارثة نفسها، سيغزو البرد أصابعي، وتجنّ طبول قلبي، وسيُصاب لساني بالشلل، وأغلق الخط.

لا...

لن يحدث ذلك، لن أغلق الخط...

بدأت أحلم من جديد... بيني وبينه أرقام،

بيني وبينه هذا الاختراع الجميل الذي لا يصلح إلّا للطوارئ، بما فيها طوارئ القلب.

الحب عبر الهاتف له طعم الزلزال.

الـ «ألو» وحدها تخلخل الكيان في ثوانٍ، تحدث صدمة الكهرباء تلك التي تبعثر الدم والمشاعر في كل الجهات، ثم ثوانٍ أخرى بعدها ليحلّ الفرح الذي يستمر

طويلاً لأن الكارثة لم تحدث. بدأت أدير الأرقام: 3.. 6.. 0.. 0..

لم أدر بقية الأرقام وأغلقت الخط.

كان قلبي قد ركض إلى تجاويف الحلق، وبدا يتسلّى كطفل شقي بقلب أثاثي الداخلي.

أخذت نفساً عميقاً، وحملت السماعة من جديد، لكنني ترددت بعض الشيء ثم...

ثم طلبت حنان، ردّت والدتها بصوتها العطوف الحنون، فشعرت بكثير من الارتياح، حتى أنّ قلبي عاد إلى مكانه فوراً بمجرد أن سمعت صوت حنان.

قلت لها ممازحة:

ـ أراك سعيدة باستقالة الشاذلي، فمتى يتم تنصيبك رئيسة علينا؟

قالت:

ـ أنا سعيدة بالحصار، فهنا في قسنطينة بدأت حركة غير عادية لرجال الأمن منذ ساعات، وبيني وبينك كل رجل أجمل من الآخر، كلهم مثل «أرنولد شوارتزينيغر» و«سلفستر ستالون» ستحلّ مشكلة العنوسة ومشكلات عواطفنا تماماً إذا استمر الحصار سنة...

هذه هي حنان بن دراج، حتى المصائب الكبرى تجد

فيها نقرات فرح. فقد تذكّرت قبل سنة حين أعلنت الجبهة الإسلامية للإنقاذ الإضراب وأغلقت الجامعة والطرقات بالقوة من طرف أنصارها، أنني كنت في منتهى الغيظ خوفاً من أن تعلن سنة جامعية بيضاء، بينما حنان كانت في منتهى السعادة لأن المضربين يوزّعون «الهمبرغر» على الناس في الطريق، وكانت تلك أول مرة نذوق فيها «الهمبرغر» وقد أصرّت أن أنزل معها إلى مدرسة الفتون الجميلة التي اتخذتها مناصرات الفيس مطبخاً لتحضير الأكل للمضربين، يومها قالت لي: ليضربوا، «نُزْدُو صَحّتنا ما دام الماكلة بَاطل».

دردشنا قليلاً ثم سألتها:

ـ أشعر بتأنيب ضمير، في رأيك لماذا؟

أجابت بسخريتها اللاذعة:

ـ لأنك أخلفت من عرقوب.

ـ أنا أخلفت؟ أنا لم أعده بشيء، قلت لها.

لكنها تمادت في سخريتها:

ـ أنا لا أفهم ما الذي أعجبه فيك؟

هكذا شجعتني على الاتصال به، لكنها أثارت لديّ أكثر من سؤال كيف يتعلّق شاب ناضج مثله، بـ «مراهقة» مثلي تعيش في خصام شبه دائم مع أنوثتها، تحلم أغلب

الوقت بأشياء يستحيل أن تحدث، بل وأكثر من ذلك، فهي تدير أرقام هاتفه لا لتسمع صوته، بل لتسمع صوت رجل آخر، ليس سوى والده.

لنجرب...

أدرت الأرقام كلها، وقد أعطيت كامل الحرية لقلبي ليحدث الفوضى التي يريد، حين سمعت الـ «ألو» التي أريدها قلت له:

ـ مساء الخير.

أجاب ورائحة تبغه تكاد تصلني:

ـ مساء النور.

قلت له:

ـ آسفة على الإزعاج «مسيو» عبد الجليل، هل بالإمكان أن أتكلم مع توفيق؟

سألني:

ـ من معي؟

تجمّد الدّم في عروقي، «من معي» هذه حميمية أكثر من اللازم، وتخصّني أنا، وحين أجبته:

ـ لويزا.

تخيلت أن اسمي هذه المرة وقع في أذنه نقياً من كل الأصوات كما تقع قطعة النقود في حصّالة.

«لويزا» هذه المرة تخصه هو فقط.

تخيلته يمسك السماعة بيده اليمنى، ويفرك ذقنه بتلك الحركة الجميلة بسبابته وإبهامه حين قال لي:

ـ تتركين لي دفتراً لأقرأ، لأعطيك رأيي ثم تغيبين كل هذه الفترة يا لويزا، دون أن تسألي، ألا يهمك أمر ما تكتبين؟

كان بودي أن أشرب جرعة ماء قبل أن أجيبه:

ـ أنا آسفة انهمكت بالامتحانات.

ابتسم صوته:

ـ لا عليناً... كنت سأنشر لك إحدى القصص، لكن توفيق نبهني إلى أنك لا تودين التوقيع باسمك لأسباب عائلية ولهذا تراجعت، وانتظرت اتصالك، لنتحدث بالأمر، وبكل صدق سأقول لك إن ما قرأته هو من أجمل ما كتبته امرأة من بنات جيلك، ومبدئياً أرى فيك مستقبلاً باهراً في الكتابة.

هذه المرة كان بودي أن أصرخ فرحاً، لكنني كبحت نفسي، فسألته:

ـ لم يخبرني توفيق بذلك؟ أحقاً ما تقول؟

أجاب:

ـ وحده الأدب لا يحتمل المجاملة.

جمعت كل ما لديّ من شجاعة وقلت له:

ـ هل يمكنني أن أسألك سؤالاً آخر؟

قال:

ـ اسألي.

قلت:

ـ هل لك صديق لبناني اسمه بول جدع؟

أجاب بذلك الهدوء الجميل:

ـ ذكّرتني يا لويزا، كان لي صديق لبناني اسمه بول شاوول اشتغلنا فترة معاً في باريس، هو عاد إلى بيروت وأنا عدت إلى الجزائر.

سكت قليلاً ثم أردف:

ـ من أين اخترعت اسم بول جدع؟

أجيبه بكل صراحة:

ـ تخيّلته.

وهنا دوّت ضحكته التي أحب والتي خصّ بها حصّالتي فقط. سألني بعدها:

ـ وكيف تخيّلت صديقي بول؟

ضغطت على شفتي قليلاً، وأخذت نفساً عميقاً ثم أجبته:

ـ أتخيّله الرجل الذي يستوعب كل الطوائف، ويكره التعصب الديني و. . . و. . . في كل مكان له أصدقاء. . .

ـ وماذا أيضاً؟

ـ أتخيّله يكره الحرب، يكره العنف، وأراه شاعراً أو رجل مسرح.

ضحك أكثر وقال:

ـ يا لخيالك. . . كأنك تعرفينه. . .

هذه المرة. . . كل ما جرى بيننا من حديث كله حصل، قبل أن يكلّمني ترفيق الذي بدأ الحديث معاتباً، وبدأته معاتبة:

ـ كيف نسيتني كل هذه الفترة؟

ـ كيف لم تخبرني أن والدك قرأ نصوصي وأراد نشر أحدها.

ـ لا تنسي أنني جزائري، سياستي الوحيدة أن أعامل بالمثل.

ـ لكنك على علمي ابن شاعرة فرنسية أيضاً.

ـ الشعر لم يعد له مكان في فرنسا، الشعر خبز الحالمين أمثالنا.

ـ طيب، غير الشعر فيما تريد أن تحدثني.

ـ كنت متعباً.

ـ بالتأكيد لستُ السبب.

ـ بالتأكيد أنت السبب.

ـ توفيق . . .

ـ لويزا . . ma chérie، دعيني ولو مرّة، ولو مرّة، أن أقول لك ما لديّ.

ـ هل تعرف أنك تدهشني؟

ـ أدهشك لأني أحبك بالطريقة الأكثر وضوحاً في هذا العالم؟

ـ هل يسمع والدك الآن ما تقول؟

ـ لماذا تقحمين والدي في كل حديث بيننا؟

ـ tel père tel fils (الابن لأبيه).

ـ أنت مخطئة جداً إذا اعتقدت هذا الاعتقاد.

كنت أعرف أنني مخطئة.

مخطئة في إقحام سيرة والده في كل حديث بيننا، ومخطئة لأنني أبحث دائماً عن نقاط التشابه بينه وبين والده، كأنما لأوهم نفسي أنه لهذا السبب يحق لي أن ألعب اللعبة معه.

الحب لا يأتينا في حلّته المكتملة.

أظنه، كائن مستعجل لا تهمّه أناقته حين يحضر موعده.

■

انتهت أيام العطلة بسرعة.

لكن الشتاء لم ينته.

كانت قسنطينة ماطرة في ذلك الصباح أيضاً، بعض الدبابات ورجال الجيش لم يغيّروا من حركة قسنطينة، وحتى «رجل المظلة» وجدته في انتظاري، كأنما كان يعرف موعد وصولي.

لا أدري لماذا كنت سعيدة جداً برؤيته، قطعت الطريق نحوه راكضة، واحتميت بمظلته من المطر وأشياء أخرى.

قلت له وأنا أنفض شعري من الماء:

ـ انتظرت كثيراً؟

ـ انتظرت سنة.

ـ قل الصح.

ـ كنا في الواحد والتسعين صرنا في الاثنين والتسعين، كنا في عهد الشاذلي، صرنا في عهد بوضياف، هل تدركين طول ما انتظرت؟

وكأنني أردت الابتعاد قدر الإمكان عن أي حديث عن العواطف فقلت له:

ـ فعلاً... صرنا في عهد بوضياف؟

ابتسم وقال بهدوئه المعتاد:

ـ هل تعرفين أنه من مدينة السينمائي محمد لخضر حامينا أول مخرج عربي خرج من «كان» بجائزة؟

قلت:

ـ كلاهما من المسيلة؟

قال:

ـ نعم.

قلت له:

ـ لم أكن أعرف هذه المعلومة.

قال:

ـ وماذا تعرفين إذن؟

أجبته:

ما يعرفه الجميع، أنه صاحب كتاب «إلى أين تسير الجزائر؟» وأنه من تولّى تنظيم «المنظمة الخاصة» OS في مقاطعة قسنطينة؛ فهو أحد التسعة الأوائل الذين أقاموا المنظمة ولهذا يعرف كل رجالات نوفمبر... وحتماً كان يعرف جدّي أحمد. تماماً مثلما يعرف بن بولعيد وبن مهيدي.

قاطعني:

ـ لكنك لا تعرفين أنه يعرف يوسف عبد الجليل؟

نقر «النقرة العجيبة» على قلبي:

ـ صحيح؟ قلت له وأنا أفتح فمي من الدهشة.

أجاب:

ـ صحيح، كان ذلك عام اثنين وخمسين حين أنشأ بوضياف مع بعض رفاقه من حزب الشعب الجزائري مجلة le patriote (الوطني) كان فيها أصغر صحافي على الإطلاق هو يوسف عبد الجليل، كان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة.

قلت له والدهشة تضرم نار فضولي:

ـ لا . . . لا أصدق.

قال وهو يزيح بعينيه المسافة التي بيننا:

ـ بلا . . . كان يكتب أشعاراً نشرت تشجيعاً له لصغر سنه، كما كان ينقل الرسائل بين المناضلين.

ـ ترفيق . . . لا تبالغ، إنك تقول ذلك لأنك تعرف مدى إعجابي به؟

هزّ رأسه مستغرباً وقال:

ـ لماذا نصدّق أن بيتهوفن كتب أول سيمفونية في السادسة من عمره، ولا نصدّق نحن أمة الشعر أن أطفالنا لهم القدرة على كتابة الشعر في الثانية عشرة؟

قاطعته:

ـ لم أقل ذلك بالضبط ولكن يبدو الأمر عجيباً؟

ولكنه قال لي بجدية:

ـ راجعي التاريخ يا صغيرتي. . . إن أجيال ما بعد الاستقلال لا تقرأ التاريخ، وبالتالي لا تعرف الوطن، وحتى طلاب الجامعات لا يقرأون شيئاً خارج مقرراتهم.

لم أجد ما أقوله، لكنه كان يعجبني جداً حين يتحدث.

وقد فاجأني، لأول مرّة مدّ يده، وأمسك يدي، وهمس لي:

ـ توقفي عن الهروب، لقد انتظرتك أسابيع لأسمع منك حديثاً غير هذا.

ولكنه لأول مرة أيضاً، يضعني في مواجهة الجدران.

وكان الهروب مستحيلاً منه في تلك اللحظة.

يده، طرية، ودافئة. . . وعاشقة. . . والمطر لم يكفّ عن قول الأشياء الجميلة التي كانت في صالحه. . .

يده. . .

تماماً كوالده، حمّلها فائضاً من الكلام،

قالت، قالت. . . قالت. . .

اختصرت عمري في تلك اللحظة مرتين، اختصرته، فصرت كهلة، واختصرته فصرت صبية. . . ثم ضعت بين العمر الذي أريد.

وتوارد على ذهني، السؤال نفسه:

هل يمكن للحب أن يبدأ من لمسة يد؟ وهل يمكن للقلب أن يصاب بالجنون من لمسة حب؟

يومها فقط وعدته بلقاء التزمته،

وكان الخميس، اليوم الذي لا محاضرات عندي فيه، فنزلت باكراً كما اتفقنا، أنتظره عند موقف الباصات قرب مبنى الإذاعة والتلفزيون، كانت بقربي سيدتان،

إحداهما ترتدي الملاءة القسنطينية السوداء، والأخرى ترتدي ما يشبه الحجاب، وكلاهما سمينتان، وتبدوان في خريف العمر. قالت المتحجّبة للثانية:

ـ هل سمعت ما حدث البارحة في منطقة «الكيلومتر الخامس»؟... قالت الثانية:

ـ في «الزيادية» أو «الكيلومتر الخامس»؟ قالوا قتلوا بُوليسي في «الزيادية»...

قالت الأولى، وهي تولول بصوت خافت وتضرب على صدرها ضربات خفيفة:

ـ وَاشْ مَنْ بوليسي انتِ تَاني، قتلُوا زوج، طفلة (شابة) عاشق مْعاها وَاحدْ، ضَرْبا بالحجارة حتى الموت...

اهتزت الثانية وقاطعتها:

ـ رَبِّي يَبقي السّتر، ضَرْبُوهُمْ حتى ماتوا؟

وظلت تردد «ربي يبقي الستر» بصوت خافت وهي تواصل الاستماع لباقي القصة التي سردتها الأولى بكثير من الاختصار وبصوت منخفض وبعض الكلمات تكتفي بالتعبير عنها بإشارات من يديها:

ـ قبل كان يغازلها... وكانا يلتقيان باستمرار... صغار ما يعرفوش صلاحهُمْ...

ولم أستطع سماع الباقي.

كانت السيدة قد نبهتني إلى أنّ الحب عندنا تهدّده ثورة بالحجارة. وكان الخوف قد دبّ في نفسي، فكيف لي أن أستمتع ببداية حب تتهدّده مسبقاً حكاية «أمنا الغولة»...!!

شعرت بالبرد يحرّك أسناني ويحدث الطقطقة بينها، أو بالأحرى بالخوف، فلم يكن البرد قارساً لدرجة اصطكاك الأسنان ببعضها بعضاً.

إذ لم أعد أفرّق بين البرد والخوف وأنا أنتظر رجلاً بصفة حبيبة...

فجأة قطع وصول الباص حبل مخاوفي، أشار لي توفيق من خلف الزجاج، فصعدت وجلست بقربه، وأنا أرتجف، قلت له ما سمعت، فأخبرني بما هو أفظع:

ـ بسيطة... هذان اثنان، فقد حدثت أشياء عجيبة في الليلة الماضية، هُدّد كل الصحافيين بالموت، وكل النساء

غير المتحجبات وبياعي أشرطة الكاسيت والفيديو ورجال الشرطة؛ وقتل طالب جامعي بـ «الفيرمة»، والغريب أنّ الأمن لم يصل حتى خلا الحي كله من الطلبة لتبقى الجريمة غامضة.

نظرت إليه بخوف وقلت له:

ـ كيف عرفت؟

أجاب:

ـ البيانات تملأ المدينة، وقسنطينة مثل بالونات الأطفال تنفخها إشاعة واحدة ويفجرها دبوس صغير، أما جريمة «الفيرمة» فقد أخبرني عنها عبد الهادي في الليل.

سألته بصوت أخفض:

ـ هذا هو الجهاد الذي تحدثوا عنه؟

قال:

ـ واشْ منْ جهادْ... هذه فوضى.

ثم سكت قليلاً فقلت له:

ـ فيما تفكر؟

فقال:

ـ أفكر في بوضياف، إنه لا يكون في الجزائر إلّا حين تكون فيها ثورة...

وصمتت قليلاً قبل أن أقول له:

ـ ألا يمكن أن تتحدث في أحد موضوعاتك العلمية البعيدة عن السياسة والوضع الأمني في البلاد، أشعر أن أطرافي انشلّت من الخوف.

ضحك وقال لي:

ـ سبحان الله، أنت تخافين؟... لا أصدق... كيف تخافين وقد قالت لي حنان إنك كمشت رجلاً تسلّل إلى «نخاس» في إحدى الليالي؟

سررت حين سمعته يقول ذلك، فهذا يعني أنه يهتمّ بأخباري وقد وددت كعادتي أن أكون متواضعة أمامه قدر الإمكان:

ـ لا تصدّق كل ما تقوله حنان، فقد كمشته مع حراس الحي.

أذكر تلك الليلة جداً؛

سمعت صراخاً، وبعد لحظات كانت إحداهن تناديني:

ـ لويزا... هناك رجل في الحي، ماذا نفعل؟

كان تقمُّصي للشخصية الذكورية يكفيني لأخذ سمة القوة، سواء أمام نفسي أو أمام غيري، فأنا أذكر جيداً حين كنت متحجّبة أنني أشعر بالضعف يرتديني على الرغم من أن المتحجبات المنتميات للفيس نساء قويات، بل أقوى من رجاله خصوصاً خلال الإضراب، فقد أغلقن كل

الطرق المؤدية إلى الجامعة، بجلوسهن على الطريق وقراءة القرآن، وكن يملأن الساحات والملاعب والمظاهرات، وأذكر يوم جاءت فرق فنية من التوارق من أقصى الجنوب لتقديم حفلة بـ «النحاس» خلال برنامج ثقافي أقيم بقسنطينة ما الذي أحدثته من فوضى بالحي، فقد جلسنا في مسرح الحي ننتظر رفع الستار وبداية الحفلة بشغف، فللتوارق تقاليد جميلة يتميّزون بها عن كل العالم؛ فهم الشعب الوحيد الذي يمنح السيادة لنسائه وقوة المرأة الترقية تصل إلى حدّ مواجهة المخاض وحدها، إذ تلد مولودها دون أن يراها أحد، وتعود به ملفوفاً إلى قبيلتها، عدا أنه شعب لون بشرته أزرق من جراء استعماله لحجر «النيّلة» الذي يقاوم الشمس لدرجة أن الفرنسيين أطلقوا عليه اسم «les hommes bleus» (الرجال الزرق) يومها... وفي اللحظة التي بدأ فيها الحفل هجمت مناصرات الفيس على أعضاء الفرقة وتحول الحفل إلى قتال وكانت شعارات «اللّه أكبر... إلى الجهاد... أقضوا على الكفار...» ترتفع. هربت أغلب المتفرجات وقليلات بقين للمقاومة وكنت منهن، فقد تألمت لمنظر أعضاء الفرقة المسالمين، الذين أشفقوا حتى على آلاتهم الموسيقية الغريبة فلم يستعملوا غير الأيادي للردّ على ضربات العصي.

وانتهت الحرب بعد تدخّل الحراس، لكن يومها أصبح واضحاً أنّ بنات الحي انقسمن إلى من ناصرن القيس ومن وقفن ضدّه ومن عَنَّ من حزب «H T M» أو «خشيشة طالبة نعيشة» أمثال نرجس وغيرها من اللواتي لا علاقة لهن بما يحدث كيفما كانت الظروف.

أمّا أنا فقد كنت من القسم الثالث، إذ لم تكن تعنيني السياسة في شيء، ولكني دخلت في تلك الحرب بشكل عفوي، وربما تعاطفاً أكثر مع الموسيقى والفن.

أغلب فتيات الجناح الذي أقطن فيه يعتبرنني رجل الجناح، حتى أنّ سهى الطالبة الفلسطينية المقيمة في ذات الجناح معنا والتي تناديني «حسن صبي» وأنا أستلذّ الاسم، تلقّبني بـ «فترتنا»، وكنت أتباهى كثيراً بهذا اللقب.

كنت أستغرب كيف تخاف مئات البنات من رجل أو اثنين أو ثلاثة رجال، من الشواذ الذين يتسلّلون إلى الحي خصوصاً في ليالي الربيع أو أوائل الصيف.

إذ كنت أعرف أنّ ما يلزمهن لهزم الخوف هو قليل من الشجاعة، ولذلك كنت أول من يخرج، ويثير الضوضاء التي تنبه الحرّاس فتتبعني أخريات بعصي المكانس والسكاكين والمقصات، ما يشكّل قوة تخيف أولئك

الشواذ، فيهربون، أمّا إذا تسلّل أحدهم إلى دورة المياه، فقد قضي عليه، تلقي عليه القبض، ولا أحد يخلصه من أيدينا إلّا رجال الشرطة.

الخوف... notre maladie chronique (مرضنا المزمن) على رأي توفيق... والخوف من الرجل هو الدرس الأول الذي تلقّنه العائلات لبناتها، ولهذا تبدو خمسمائة شابة كمجموعة هائلة من الفئران يحرسها قط واحد أعرج.

كنت أكره في النساء هذه الخصلة.

وكنت أكره نفسي أحياناً للسبب نفسه، فالرجل هو دائماً القط الذي ينتظر فأرته في زاوية ما...

ومثلاً، قسنطينة مدينة تنام باكراً، ومن تأخر عن معاد نومها في الشارع يجب ألا يكون امرأة، فالقطط التي زادها الجوع توحشاً تملأ الزوايا المظلمة.

تحدّثت دون خجل مع توفيق خلال الطريق عن كل هذه الأشياء، لكنني شعرت ببعض الخجل حين نزلنا مشياً مروراً بسوق الفلاح نحو دار الصحافة، فقد كانت العاهرات كالعادة يعرضن «بضاعتهن الرسخة» على أصحاب السيارات الجميلة والنظيفة، وأصحاب الشاحنات، وأبناء الفقر الذين يشترون الجنس حين صار أرخص من الخبز.

كان غريباً جداً أن توجد دار الصحافة والمطابع وجرائد أخرى في منطقة معزولة مقابل حي قَصْديري، وعلى رأي حنان «دار الصحافة في الخلاء، والحبس في وسط المدينة» كأن ما يحدث الآن محضر له منذ زمن بعيد.

وقد توقعت يومها أن أجد على الأقل حارساً بمعنى الكلمة في الـ Poste de police (مركز الحراسة)، لكنني فوجئت بعمي مسعود نصف نائم والباب مفتوح على مصراعيه، والكلب الهرم ذاته ينام قربه لكنه لم يفتح ولو عيناً واحدة ليشعرنا بوجوده.

نظرت إلى توفيق بعد أن تأملنا هذا المنظر معاً لثوانٍ وقلت له:

ـ قلت لي هددوا كل الصحافيين بالموت؟

أجابني ساخراً:

ـ الحالة ميتة من غير تهديد.

لكن الوضع لم يكن كذلك في الداخل، فقد وجدنا كل الصحافيين والموظفين في مكتب يوسف عبد الجليل، يتناقشون في الموضوع والقلق بادٍ على ملامحهم، وبعد التحية سأل أحدهم توفيق:

ـ واشْ الشَّايَبْ تاعكم لأغْبها ancien (قديم) مجاهد، مافْرِشْ خايف؟

يستحي الشباب من قول كلمتي «أبي» و«أمي» فيعوّضانهما بكلمتي «الشايب» و«العَجُوز» وكأن البرح بحب الوالدين أيضاً قد دخل سلسلة الممنوعات.

ردّ توفيق:

ـ عندُه cours (محاضرة) في الجامعة، الساعة 10:30 بالضبط يكون هنا.

كنت أعرف أن الحب قد يهمل أشياء كثيرة لكن مواعيده دقيقة، ولا تختلف عن مواعيد الموت.

في الساعة 10:30 تماماً دخل، رائعاً كما رأيته سابقاً، أطلّ مفلتاً مزيداً من الرونق في يده التي مدّها لنا جميعاً، مركّزاً في تحيته على نطق اسم كل واحد منا، ومن هنا عرفت أسماءهم جميعاً...

أمّا أنا فقد قال لي: «الهزّابة».

له الحق.. غيابي هروباً من التورط في تلاليب الحب من طرف واحد لا من ملاحظاته حول نصوصي.

انسجم معنا بشكل عجيب، خلع معطفه، ثم «الجاكيت» وشمّر عن ساعديه، وسأل قبل كل شيء عن العدد الجديد وكيف وجدوه وقد أعجبتني فيه تلك القدرة على احترام الجميع، وسماعهم واحداً واحداً، من الصحافيين إلى

العاملين بالإخراج والمصححين والفتيات اللواتي يعملن على صف المادة على الكمبيوتر.

ويقلب الصفحة بعد الصفحة، ويسجل ملاحظاتهم...

وفي الأخير قال لهم:

ـ طيب يا شباب هذا عن عدد اليوم، لكن قبل أن نتحدث عن عدد الأسبوع المقبل، أعرف مدى قلقكم من التهديدات الجديدة التي خصّت الصحافيين وبعض الناس، وأولاً أريد أن أنبّه إلى أن الصحافة لم تعد مهنة لمجرد الحصول على لقمة العيش، الصحافة رسالة، واختيار وليست كما يقول البعض: هذا هو القماش «ادي وَلاَّ خلي»، ومن يرى نفسه ليس أهلاً لها فلينسحب...

واتفقت كل الأصوات ألا تنسحب.

قال:

ـ عظيم... ولهذا يجب ألا تخافوا، أو تستهينوا بالأمر... لأننا مقبلون على مرحلة خطيرة، وأظن أنه لا أحد يعرفنا مثل أعدائنا، ولهذا أجد أن للفرنسيين الحق حين قالوا إن الجزائر ستمرّ بفترة عصيبة وخطيرة. وبحكم تجربتي أيضاً أشعر أن الجريمة ستزداد بشكل مخيف فعلاً... على كُلٍّ، منذ اليوم أريدكم أن تأتوا إلى الجريدة في أوقات غير محدّدة، ومن لا يريد أن ينزل إلى دار

الصحافة فليسلمني المادة في الجامعة، أو في مقهى بيروت أو يتركها لي تحت باب البيت أو مع توفيق، لا أريد أن أعرّض أحداً للموت، ومن يريد أن يوقع باسم مستعار فليفعل. . .

وفي الأخير قال مازحاً:

ـ وإذا كنتم تريدون أن نحوّل الجريدة إلى مطعم فلنحوّلها، لكن المشكلة أنّ الموت يضرب أصحاب المطاعم أيضاً. . .

ضحك الجميع، وابتسم، كأنما سُرّ لإعادة الثقة في نفوس صحافييه.

لكنه أردف:

ـ الآن فقط سنعرف من يحب الصحافة، ومن يحب نشر اسمه في جريدة، والأعمار بيد الله. . . أليس كذلك شباب؟

قال تلك العبارة، بعينين معبأتين بجراح الماضي، قالها، بملامح قاسية، وصلبة ومختلفة وحزينة. . .

فتذكرت حزن خالي، ومرارة خيبته من أجل كل ما يحدث في الوطن. ابتسمت حين هزّني توفيق من يدي وقال لي:

ـ أين صرت؟

إذ انتبهت أنّ الجميع خرج، وأنّ يوسف عبد الجليل ينظر إليّ وهو يشعل سيجارة ثم قال:

ـ يبدو أنها خائفة؟

فقلت له:

ـ فعلاً.

قال توفيق:

ـ سأصحح مقالي مع إيمان، ثم أعود.

وخرج، أمّا يوسف، فقد جلس على الكرسي المقابل لي وقال:

ـ يجب ألا تخافي من الموت ما دمت تملكين قلماً حلواً، أو بالأحرى ما دمت تكتبين، فالكتابة أقوى الأسلحة ضد الموت، ثم... في الأخير لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا.

قلت له:

ـ أخاف من الموت، أخاف من تلك اللحظة التي تغادر فيها الروح الجسد، خيالي يتعبني في كثير من الأحيان، أتخيّل تلك اللحظة الرهيبة التي تغادر فيها الروح الجسد الذي تعوّدته لتسافر إلى الفضاء، ثم لا أدري على أي كوكب تحط، وماذا تجد؟

نظر إليّ، ابتسمت عيناه وقال لي:

ـ طبيعي جداً أن تخافي من الموت، لكن أسئلتك يثيرها الذكاء، ذكاؤنا هو ما يتعبنا في هذه الحياة لذلك تجدين الأغبياء أسعد خلق الله.

ومرة أخرى وجدتني في مواجهته على انفراد، أفكر في أشياء تتعلق بي حين حدثني عن الذكاء، فكأنما أزاح الستار قليلاً عن جراحي، يوم لازمني الفشل في كلية الطب، ولازمني الخجل من مواجهة خالي على الخصوص، دون أن يستوعب أحد مشكلتي التي ورطتني فيها السلطات العليا للبلاد، بذلك البرنامج البيداغوجي «المدروس» من طرف «كوادرها» آنذاك، ولذلك بحثت لنفسي عن حلّ عند حكيم نفساني، إذ قلت له:

ـ لم أعد أرى فائدة من وجودي في الحياة، إنني أستهلك رزق شخص آخر أحق مني بالحياة.

كان شاباً في مقتبل العمر، وبعد عدة جلسات عرفت أنه يعاني معاناة كل المثقفين في البلد، لكنه بحكم مهنته، يتسى نفسه، وقد قال لي بصيغة من وجد حلاً:

ـ عادة «إن الأطفال الموهوبين ذهنياً يتحملون الإحساس برفض الآخرين لهم، واستبعادهم إياهم، فيحاولون أن يكونوا مثلهم، وأن يتخلصوا من ذلك الشيء الذي يجعلهم مختلفين عنهم، ويحول دون تقبّل المجتمع

لهم، وهو سلوك انتحاري... إذ يبدأون في شن حرب شعواء داخلية على أنفسهم».

وكنت قد فهمت الصورة واضحة فيما بعد فإما أن يخرّب الطفل نفسه منذ الصغر، وإما أن يصبح حاذّ الطباع شرساً على كبر، حين يجد نفسه مهندساً أو طبيباً بلا عمل، تضيع أيام عمره على الرصيف... لا أحد بإمكانه أن يفهم أطفالنا الأذكياء، نحن الذين أكلت الأمية النصف الأهم من شعوبنا.

لا أحد يعرف أن هؤلاء الأطفال هم في غاية الهشاشة، وأنّ الواحد منهم «إذا نشأ في وسط غير مناسب، حيث لا يهتم به أحد فإنه يدمّر نفسه تدريجياً، إذ نجده مع مرور الأيام يزداد انطوائية وينكمش ثم يذبل تماماً».

بعد سنة من ذلك الحديث الذي دار بيننا، عثرت على كتاب يشرح بالتفصيل كيف أن «الطفل العبقري، أو الموهوب ذهنياً يطرح دائماً أسئلة غير متوقعة، ونجده دائماً شارد الذهن، وكأنه في عالم آخر، كما أنه لا يكون بالضرورة متفوقاً دراسياً، بل على العكس قد يلازمه الفشل الدراسي في مرحلة عمرية معينة، وقد تدفعه ضغوط من حوله للإصابة بالاكتئاب /.../ والاستسلام له، حداداً

على كل شيء، على فضوله، وعلى سعادته بنفسه، ورغبته القوية في التعلم، ويتنابه الإحساس بالملل القاتل، وتبدأ الاضطرابات النفسية بتهديده، بدءاً بالقلق العادي، وانتهاءً بالأمراض النفسية الجسدية والانطواء على النفس والعدائية والاضطرابات السلوكية»؛ وقرأت تلك الدراسة التي أجراها «د. جوفري» على مائة وخمس وأربعين حالة، تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والأربعين والذين كانوا جميعهم من الأطفال الموهوبين ذهنياً، ومرُّوا باضطرابات نفسية في المراحل المبكرة من طفولتهم، وقد أظهرت الأبحاث أن 65% ممن شملهم الاستطلاع يتردّدون على العيادات النفسية، بينما ارتفعت نسبة الانتحار بينهم عن معدلها الطبيعي وقال الباحث: «هؤلاء أشخاص يطاردهم إحساس بأنهم يعيشون على هامش الحياة، طموحاتهم متواضعة، والنجاح الاجتماعي لا يهمّهم كثيراً، شيء واحد يهمّهم، الهروب من الإيقاع الروتيني اليومي».

بعد سنة أخرى من تلك الجلسة الجميلة التي جمعتني مع يوسف عبد الجليل كانت نتائج «د. جوفري» تتحقّق على أرضنا؛ كان شعب بأكمله قد بدأ الانتحار على طريقته، بدءاً باغتيال «بوضياف» في ذلك الصيف الحار،

إلى اغتيال رجال الشرطة والجيش، إلى اغتيال المثقفين، إلى اغتيال مواطنين بأسباب أو بغير أسباب.

سنة تعوّدنا فيها الخوف، وصار فيها الإقدام على الموت متعة. ولن أنسى منظر ذلك الشاب الذي قفز على بعد خطوات منا أنا وحنان، من على جسر «سيدي راشد» ليهوي على صخور «وادي الرمال» قطعة مهشّمة، أكلت تعاسات الحياة روحها.

إذ بسرعة تجمّع المارة على الجسر ليشاهدوا بقايا خطوته المجنونة تلك.

قال أحدهم:

ـ تستعرف بيه، رجل ونُصّ.

وقالت امرأة بجانبه:

ـ واش اللّي تستعرف بيه يا مخلوق اللّه، كَبْدي على يُمّهْ وِيْن رَاحْ تبات الليلة...

فردّ آخر:

ـ واللّه فحل، تعلبوها دنيا.

قبل سنوات كانت جسور قسنطينة تستقطب السياح، ثم صارت تستقطب المجانين، وشيئاً فشيئاً صارت تستقطب منتحراً كل أسبوع على الأقل، أمّا الآن، فقد ارتفع معدل جاذبيتها للموت حسب حدّة ما يحدث، وغلاء المعيشة

وانقلاب المفاهيم. كنا لا نسمع مثل هذه العبارات أمام مواقف الانتحار. المنتحر يقال عنه «لعنهُ اللّه».

صار الانتحار سلوكاً شجاعاً يباركه الشباب.

سنة...

ركضت فيها الأحداث بسرعة الضوء... «رمشة عين» صرتُ فيها واحدة من أسرة جريدة «جسور» التي يرأسها يوسف عبد الجليل.

وكنت قد انصهرت في اسمي المستعار مثله تماماً.

ذاك الاسم الذي اختاره لي ولهذا أحببته حتى نسيت اسمي الحقيقي... «آمنة عز الدين»..

صرت أكثر اقتراباً من توفيق...

أكثر التصاقاً بيوسف،

أكثر تفهماً لحنان، وأكثر ارتباطاً بصداقتنا.

وأكثر حزناً على نرجس التي انقلبت حياتها رأساً على عقب إثر التحاق أخيها عمّار بمن سمُّوا أنفسهم الجيش الإسلامي للإنقاذ، كان قد صار في آخر سنة هندسة، وأذكر أنني رأيته أكثر من مرة، في الجامعة مع نرجس، مبتسماً دائماً بشوشاً، خفيف الظل، نظيفاً ومهذباً،

كان يمكن أن يكون أي شيء إلّا متطرفاً،

لكن... الذي حدث...

بدأت نرجس تذبل وتضيع خطوط ابتسامتها في تضاريس ألم ما.

في البداية كانت تحاشى البقاء في الغرفة، وقد شعرت بهروبها المستمر مني، ومن أحاديثنا اليومية حتى ظننتني أسأت بحقها...

واجهتها بذلك مرة، فأنكرت، وواجهتها مرة أخرى، أبحث عن سبب هروبها مني فبكت وصرخت بوجهي: «لا تسأليني هذا السؤال مرة أخرى» وهربت كالعادة.

لكنها، قالت... ذات ليلة...

كنت عند سعاد وتوال فتأخرت بالسهر، وحين عدت لمحت نور الغرفة من شق الباب، ولكن بمجرد أن وضعت المفتاح بالباب انطفأ النور.

دخلت فإذا بنرجس متصنعة النوم. ثارت ثائرتي، فأضأت النور وصرخت فيها:

ـ لم لا تكونين صريحة معي، إذا كنت أسبب لك مشكلة بوجودي فأنا مستعدة لترك الغرفة.

فتحت عينيها على بركان يغلي،

خفت من منظرها لدرجة تلعثم فيها لساني وجمدت مكاني حين قالت لي:

ـ لقد قُتل عمّار يا لويزا... قُتل...

ولا أدري لماذا في تلك اللحظة بالذات تراءت لي صورته، وهو يمدّ لي يده لمصافحتي في العيد الماضي قائلاً لي:

ـ مانيش خوانجي نعقّد... انتم المعقّدين.

انفجرت نرجس طوفاناً هائجاً:

ـ قُتل يا لويزا، وليس من حقي أن أبكيه علناً، لأنهم يصفونه بالإرهابي، تلقّينا الخبر سرّاً من أحد أصدقائه الفارين، أمي انهارت، والدي ردّد «اللّه أكبر» يرثي حلمه الذي قُتل، كان ينتظر نهاية السنة ليقال له: والد المهندس صار على مقربة من حلمه يدعى والد الإرهابي.

والدي الطيب الذي عاش فقيراً يحمد اللّه، لا يتأخر من فروض اللّه، لا يتأخر عن واجباته، دوناً عن إخوته، كان أكثرهم فقراً وأكثرهم كرماً و«خطية البوليتيك خلاصْ» يموت ابنه البكر من أجل قضية غير واضحة...

كنت أنصت إليها والندم يوخزني لظنوني بها.

ما أبشع الموت حين يجيء في رداء الذل، ما أفظعه وهو يضع نهاية لا مفرّ من تقبّلها لباقي العمر.

قالت:

ـ دخلنا المقبرة نبحث عن أخي في الزاوية التي وصفها لنا صديقه، فوجدنا بستاناً لا نهاية له من القبور، بحر من

الأموات لا أفق له، وقفنا حيث دلّنا الشاب، كانت عشرة قبور جديدة، وكان تحت أحدها ينام أخي لكننا لم نعرف أي واحد منها. لا يمكنني أن أصف لك ما رأيت وما حدث وما شعرت به، القبور لا نهاية لها، ونساء، نساء عند كل قبر. على مقربة منا كانت امرأة تنتحب بصوت عالٍ، فأمسكت أمي بيدها وراحت تواسيها وتحاول تهدئتها دون أن تتوقف عن البكاء هي الأخرى. وفيما بعد عرفنا أن ابنها من الجيش الوطني، وكان أكثر شيء يكرهه كما قالت والدته هو حمل السلاح. أنظري كيف تساوينا أمام الموت، كيف تساوت الأمهات والثكالى واليتامى معاً.

لكننا بمجرد أن نغادر المقبرة تطفو الفروق على السطح، إذْ يصبح عاراً أن نبوح بحزننا، فيما يعتلي الشرف أكتافها وأكتاف ذويها حسب نظرة الناس، هي يتفهمها المجتمع. نحن علينا أن نواصل الحياة بشكل يفوق الطبيعي، علينا أن نبتسم ونضحك ونقوم بواجباتنا الاجتماعية، دون أن يحق لأم أن تتلقى العزاء في بكرها، زينة دنياها التي كادت تكتمل بتخرّجه. لا يحق لها...

كانت تتكلّم وأنا واثقة تماماً أن كل ما قالته حقيقي وصادق. فالشعوب التي تدخل في حروب لامفهومة هي

أكثر الشعوب احتقاراً للأمومة... مثلنا. وإلّا لماذا يُزج بشبابنا في حرب كهذه «une guerre cachée» تتوارى بأسباب تشبه شباك العنكبوت؟

يومها كتبت:

تلك الأم
التي تستحي حين ينتفخ بطنها،
كأنها حملت جنينها سرّاً من رجل ما غير زوجها،
تلك الأم
التي تخفيه حزناً، وتضعه حزناً،
وتحلم به رجلاً... قوة تزيل عنها همّها،
تلك الأم
التي تتقاسم معه وحده أرقها، وألمها، وأوجاعها
فيما رجل هو زوجها يعيش على حلم ليس هو حلمها،
تلك الأم
التي تعدّ الأيام يوماً بعد يوم، ألماً بعد ألم،
ومذلّة بعد مذلّة وهي تهدر عمرها،
تلك الأم
التي تحرم نفسها من أجل لقمته،
وتلغي نفسها من أجل كرامته
تلك الأم، لا يمكن إلّا أن تكون أمّاً جزائرية

تمارس أمومتها سِرّاً

كما تمارس المعارضة،

ولهذا تعاقب اليوم تحت سماء لا تحيط بها الأسلاك

بلت جثة أحلامها

مرة بحلم، ومرة بألم

وفي كلا الحالتين

تلك جثة ابنها

خارج تلك الأكاذيب التي تقسم حلمها نصفين

ذاك إرهابي

وذاك بطل

مَن الإرهابي، ومَن البطل؟

وهي بعد لم تعرف قبر ابنها؟

قدّمت النص ليوسف عبد الجليل، وكعادته أمسك النص بيد، وأشعل سيجارة بيده الأخرى.

وراح يقرأ النص بصوته الفخم، وبهدوء جعلني أشعر أنني لست من كتبه، بدا لي جميلاً أكثر، عميقاً أكثر وله دلالات أخرى لم تخطر ببالي في لحظة الكتابة.

قرأ، ثم سكت في الأخير، وظل ينظر إليّ للحظة تمتّعت فيها بارتشاف جمال ملامحه، كان جميلاً فعلاً،

كيف غاب عني ذلك من قبل؟... لكنه قطع حبل خيالي ذاك قائلاً:

ـ نص جميل، رغم بعض الثغرات.

ـ ثغرات؟

ـ لا تهم.. سأتدخل، وأضيف بعض الكلمات، هل تسمحين؟

ـ لن يصبح نصي أنا؟

سيظل نصك، وسأفرد له عموداً شرط أن تكتبي نصوصاً أقوى، لكل أسبوع عمود.

عمود؟ (قلت له مندهشة) عمود لي أنا...

ـ نعم عمود. وقف وترك كرسيه ليجلس على مقربة مني كالعادة، ثم واصل حديثه:

ـ هل تعرفين يا لويزا أنه طوال عملي بالصحافة، صادفت أربع جزائريات أو خمس بجرأتك في الكتابة: المرأة في مجتمعنا ليست مقهورة إلى الدرجة التي يتصورها الآخرون لأنها هي تتنازل عن حقوقها في الغالب، تتنازل من أجل سمعة والدها، أو من أجل خدمة زوجها وأولادها، تضحي من أجل بيتها، لكن كل تلك التنازلات يقابلها الجميع بنكران للجميل، لأن من يتنازل مرة يصبح من الواجب عليه أن يتنازل مرات...

وقف مرة أخرى وتقدّم مني حتى صار خلفي، وانحنى عليّ وقال بكثير من المودّة:

ـ حين رأيتك لأول مرة أدركت أنك متميزة، ولم تخيّبي ظني، ولهذا لن أتخلّى عنك.

التفتّ إليه قائلة:

ـ إنك تدهشني.

ولم أقوَ على قول باقي ما خطر لي من كلام،

فلم يسمح لي بقول المزيد بقوله:

ـ لك عينان ذكيتان وعاشقتان، أمّا الباقي فلم يكن يهمّني.

كدت أقول له كيف رأيت ذلك؟

لكنني اكتفيت بمخاطبته بما هو أعنف من العشق بصمتي، فيما واصل حديثه.

ـ أرى فيك أكثر من نص، لكأنك قصة جاهزة للطبع، أو كأنك قصة قرأتها، أحياناً يخيّل إليّ أنك سراب عفان لجبرا إبراهيم جبرا.

شعرت أنني تحوّلت إلى طابة قُذف بها إلى السماء، أخذت نفساً عميقاً عبّر عن كل سعادتي وقلت له:

ـ كنت دائماً أقول إننا لا نحب أن نقرأ إلّا ما يشبهنا...

فقال:

ـ هناك دائماً سبب منبعه الرغبة أو الحب أو الحنين يجعلنا نرى ذلك الشبه بين ما نحب ومن نحب، لقد أحببت زوجتي السابقة إلزا في اللحظة التي قدمت لي فيها نفسها، كان نطقها الجميل لاسمها شبيه بالقطعة الموسيقية «عينا إلزا»، وكان عطرها مصادفةً شبيهاً برائحة تلك الأزهار التي أحب... قد نحب شخصاً من أجل أشياء لا علاقة لشخصه بها.

قاطعته دون وعي:

ـ إذن إنس تشبيهي بسراب عفان.

علت ضحكته، وأظنه فهم تماماً أعماقي وخفاياها ولهذا لم يعلّق على ما قلت سوى بضحكته تلك، ولكنه واصل الحديث من جانب آخر قال:

ـ أؤمن... أن نسيج الطبيعة والأشخاص يقابله نسيج آخر يحرّك مشاعرنا في لحظة معينة هو نسيج الفن، أنا مثلاً لم أكن أسمع دخمان الحرّاشي. لكنني بعد عمر طويل من الاستقرار، في فرنسا تجاوز الخمس عشرة سنة، التقطتني أغنيته «يا الرايح وين مسافر تْروح تعْيا وتولي» اعترضت طريقي في قلب باريس، لتقول لي عُدْ إلى الوطن! كنت قد تعبت من الحضارة الغربية، ومن صراعي

الدائم مع إلزا، من أجل اللغة، والدين وقضايا أخرى كان ضحيتها ولدي، غريب أن تتخذ قراراً حاسماً، بسبب أغنية لكن هذا ما حدث فعلاً...

ما أجمل أن نتأمل الرجل الذي نحبه وهو يفك عقد فضولنا بحديث كهذا.

كانت كل تقاسيم وجهه تقول حزناً قديماً، ويداه ترتبان بعض الكلام بحركات ثقيلة وهادئة، يضم أصابعه إلى بعضها بعضاً ويجعل من إشارة يده تتمة لكلامه، كأنه الرجل الذي لا يحب أن يقول كل شيء، ويحب من محدثه أن يفهمه دون أن يقول كل الأشياء...

كان دائماً لدي شعور بأنه رجل يخزن الكثير من الأشياء في غرف قلبه، يحب أن يتفهمه الآخر حتى في حزنه، ولهذا ربما لم ينجح في زيجاته كلها. تلزمه امرأة تفهم حزنه الذي لا يبوح به، وتفهم رغبته قبل التصريح بها، وتقرأ الكلام في عينيه حين لا يكون له مزاج لقول كل شيء...

كنت أشعر دائماً أنه الرجل الذي يحب كل الناس ويحبه كل الناس، هو ناجح ومتألق كلما كان خارج البيت ولكن كابوسه الذي «يضيق عليه النفس» يسكن معه في

البيت نفسه، إذ لم يكن يفهمه من حوله رغم فهمه للجميع...

قد أكون مخطئة... لكن شخصه... عينيه... يديه... كل ما فيه يؤكد لي ذلك...

يداه...

يا لهاتين اليدين اللتين كبلتاني عشقاً، ساعداه كانا يشعان شهوة، وأظافره القصيرة والعريضة والمقلمة بعناية تحمل أكثر من دعوة حب...

تذكرت حنان حين قالت لي ذات يوم...

ـ هذا الرجل، حين تراه امرأة لأول مرة يجب أن تقرأ عليه «سورة يوسف».

كانت تقول الأشياء مزحاً وبشكل مبالغ فيه أحياناً لكنها تصيب القلب.

فقد خفت من نفسي حين لم أعد أرى فيه غير رجولته المفرطة في البهاء، تلك الرجولة التي تجعل من عقل امرأة حفنة من الجنون الذي يشبه جنون امرأة العزيز.

«يا يوسف... هيت لك».

أغمضت عيني وأمسكت رأسي محاولة العودة إلى مراقفي الصلبة، فقفز نحوي بسرعة، هزني قليلاً، وقال لي:

ـ ما بك. . . لويزا؟

ماذا لو حدّثته عن إسقاطاتي تلك، عن النصوص التي حرّكتني وهزّت مشاعري من القرآن إلى الرواية؟ ماذا لو قلت له إن «عيون إلزا» لا شيء أمام ما قالته النسوة عن نبيّنا يوسف. «ما هذا بشراً إن هذا إلّا ملك كريم».

أي صدفة تلك التي تجعل منه يوسف آخر؟ أبعد عن النبوة، وأقرب للحب، تجري من ورائه الجميلات ورقيقات القلب، وتجعل مني نسخة عن امرأة العزيز؟

قلت له:

ـ لا شيء. . . أشعر بألم مفاجىء في رأسي، وبعض الدوخة.

ركض نحو براده الصغير وسكب لي كوب ماء، وقد بدا عليه الارتباك وهو يحمل الكوب، قال:

ـ أنا أحب الماء بارداً حتى في الشتاء، سأحضر لك غيره.

قلت له:

ـ لا داعي. . سأشربه، لا تزعج نفسك.

ظلّ راكعاً على الأرض بقربي، وحين استعدت بعض هدوئي، قام، وجلس على الكرسي القريب مني. . . وقال لي:

ـ تشعرين بحسن؟
أومأت له برأسي أن نعم.
قلت له:
ـ أنت أيضاً تشبه نصوصك، أشعر أنك تختفي وراء كل شخص من أشخاصك جزءاً منك.
قال:
ـ في الأدب، لا يمكن أن تحصر الكاتب وراء شخصية واحدة إنه كل أشخاصه، لكن...
سكت وخفض رأسه قليلاً، ثم ابتسم وواصل:
ـ أنا متهم بكتابة الشر والقسوة وفظاعات هذا العالم، فكيف تجدين الشبه بيني وبين نصوصي، (سكت قليلاً مرة أخرى وأضاف) ألهذه الدرجة تجدينني سيئاً.
قلت له:
ـ كنت دائماً أكره قصص الحب التي تنتهي نهايات سعيدة، أكره الأبطال الضعفاء، الطيبين، المطحونين، أحب القوة والقسوة، وفرض الذات، أحبك كثيراً حين تكون منفعلاً مثل أبطالك وأظنك كتبت دائماً ما هو موجود، لا ما يجب أن يكون، ولهذا أحبك الناس... وأحببتك...
شعرت أنه سُرَّ بما قلت،

رأيت ذلك في كل تقاطيع وجهه. وشيء ما قالته عيناه فقط، وتلقته عيناي فقط لم أجد له صيغة لغوية لكتابته على الرغم من أنني أحتفظ ببريقه إلى اليوم.

مرّت دقائق، صمتنا فيها... بالتأكيد هروباً من التوغل في حديث خيوطه أكثر تعقيداً مما نرغب فيه.

أخذت نفساً...

أشعل سيجارة...

ثم قال:

ـ ما رأيك لو نسمّي عمودك «كسرة»؟

في تلك اللحظة دخل توفيق وقال مازحاً:

ـ كوني أنانية مثل أستاذك الساحر يوسف عبد الجليل، هو سمّى عموده «يا عين...!» نسبة إلى أول حرفين من اسمه، أنت سمّيه «لو...» على النسق نفسه، لكن أيضاً على أساس أنه كلام نسوان كله أمنيات وكلام فارغ، لا مجال لتحقيقها على أرض الواقع.

توفيق...

بهدوئه، بمزاحه الخفيف، وبحبه المجنون لي،

كأنما دخل في تلك اللحظة بالذات ليقول لي: «ترقبي، أنا أحق بحبك منه»، هو ملأت تاريخه النساء،

وأنا لك وحدك. هو ما مضى وما كان، ما قد ينتهي حين تبدئين، وأنا كل أيامك التي ستجيء... ترفقي...

«لو...».

«لو» ماذا كان يقصد بالأمنيات التي لا مجال لتحقيقها... «لو»...

أكان يقرأ أفكاري، ويرى سرّ هروبي منه مرة، والتصاقي به مرات وفقاً لمزاجي ومزاج والده...

تلك اللعبة السخيفة التي لعبتها معه...

تلك الحماقة التي تجعلني أحتقر حالي اليوم، والتي لم أكن أعرف سرّها قط...

والتي قد تكون... «قسمة ونصيباً»!

كنت أعشق توفيق طالما يوسف بعيد عني، ولكن كلما جمعني به لقاء كهذا اختلّ توازني...

تماماً كما حدث ذات يوم...

كنت في المركز الثقافي الفرنسي، أحضر بحثاً في الأدب المقارن حين فاجأني بحضوره، فلم أستطع إتمام بحثي ولا هو استطاع التركيز على الدراسة التي جاء من أجلها.

يومها كان موضوع بحثي «صورة الجزائر في أدب

كامو»، قلت لتوفيق: وقد كان حديثنا بصوت منخفض إذ كلما ارتفع صوتانا قليلاً أشار لنا أحدهم بالسكوت:

ـ على أي أساس يصنفون هذا كاتباً عالمياً وذاك لا؟

فأجاب:

ـ إذا جئت عندي، فأنا أبحث عن مفهوم جديد للعالمية.

قلت له:

ـ هذا ما أقصده، كامو مثلاً يكتب من منطلق استعماري محض فكيف يكون كاتباً عالمياً.

قال لي:

ـ صحيح؟ الا يعتبر كاتباً جزائرياً؟

قلت:

ـ لا أدري كيف يعتبره البعض كذلك، إنه يحب الجزائر، أرضاً وسماء وشمساً، كما يحبها أي فرنسي آخر له أفكاره الاستعمارية، إنه لا يذكر في أدبه امرأة أو رجلاً جزائرياً في هيئة «بني آدم»؛ إنه يذكر «امرأة قديمة» أو «عربياً» يحضران في نصوصه كعابري السبيل... كامو بالنسبة إليّ كاتب ضيق النظرة، قاطعني:

ـ لهذه الدرجة؟

قلت له:

ـ ما العالمية إذاً، أليست لقباً اعتباطياً تُمنح لشراة الأدب الأجنبي. . .

قال:

ـ أنتِ تبالغين.

قلت:

ـ أتصوّر لو أنّ للغرب كاتباً مثل عبد الرحمن منيف، أو سعد الله ونّوس لأرسلوا طائراتهم لتحرق كتبنا، ماذا يعرف الغرب من المشاعر غير الدقائق القليلة التي يمارسون فيها الجنس ليكتبوا أدباً إنسانياً يعتلي عرش الأدب. . .

قال:

ـ قد تكونين على حق، فالأدب ليس اختصاصي. . .

قلت له:

ـ ليست المسألة، مسألة اختصاص، إنني أسأل، لماذا نقرأ لنيتشه ولا نقرأ لطه حسين، لماذا نقرأ جمال الغيطاني بإعجاب وحب ونشوة، ونقرأ «بكيت»، و«بودلير»، و«إليوت» لأنهم فُرضوا علينا في المقررات المدرسية، مثلاً. . . ثم ندّعي على نسق من سبقونا أنّ هؤلاء هم الأقوى.

هل هناك شيء اسمه فعلاً «عالمية»؟

أنت كطبيب هل يمكنك أن تقبل هذا اللقب إذا ما نسب لطبيب تميّز باختراع؟

سكتت قليلاً، وبقيت أشير بيدي إلى شيء لم أجد كلاماً للتعبير عنه، ثم واصلت الحديث:

ـ هل يمكن أن تكون قيمة الجائزة هي التي تحدد عالمية الشخص فكلما كانت أغلى كان صاحبها أكثر عالمية، أم يكفي أن يكون الغرب هو من يمنح الجوائز لتصبح عالميين، إذا منحنا نحن جائزة أغلى من نوبل لفنان أو كاتب أو سياسي غربي فهل سيعترفون به أنه عالمي.. الشاب خالد يقولون عنه إنه مطرب عالمي لماذا في نظرك؟

قال:

ـ لا أدري، ربما لأنه أوصل الأغنية الجزائرية إلى كل العالم؟

قلت:

ـ إذاً فالأغنية الجزائرية هي العالمية ما دام قد غنّى ما غنّاه مثلاً أحمد وهبي، وأحمد وهبي غنّى التراث؟

قال وهو يضحك:

ـ كيف تحلّلين الأمور؟

قلت له:

ـ أفككها... بالعقل... وبذات التفكيك سأقول لك إذا كانت العالمية تمتص كل ما هو جيد عندنا، فماذا نملك نحن؟ نجيب محفوظ مثلاً أعتبره قد سُرق منا، إنه مصري ولا يجب أن تتغزّ بلقب عالمي.

شطبت على أوراقي وقلت له:

ـ هذا الغرب اللعين يأكل بعقولنا «حلاوة»، لم تكن أسئلتي تجد جواباً، ولم تعد لديّ رغبة لإتمام الدراسة، ولهذا خرجنا لنتمشى بين ثانويتي الحرية و«بوغروطة» حيث العشاق يتسكعون مساء الخميس.

لكنه مثل والده تماماً... أوقفني حيث كبرياؤه يقف، وقال:

ـ لا أحب أن أكون عاشقاً بليداً يجرّ حبيبته على الأرصفة.

لم أسأله ماذا يقصد، غيّرت وجهة سيري معه، وسلكنا شارع سان جان الرئيسي حتى بلغنا «الفيلا» الرقم 25.

توقف وسألني:

ـ هل تعرفين أن قسنطينة هي المدينة الرقم 25 من مدن البلاد؟

قلت له:

ـ ها.. ها.. ها.. ومن لا يعرف هذا يا ذكي؟

قال وهو يشير إلى رقم البيت:

ـ وفي هذا البيت ستجدين الوجه الجميل لقسنطينة، زينتها، وأناقتها، وأصالتها، شعرها وموسيقاها وثقافتها.

سألته مندهشة:

ـ بيت من هذا... بيت ابن باديس؟

أجاب، وهو يقوم بحركة من يضبط ربطة عنق:

ـ ابن باديس لم يعش أكثر من واحدة وخمسين سنة وإلّا كان صاحب البيت تلميذه؟

قلت له:

ـ لم أحزر... من تقصد؟

هزّني مرة واحدة وهو يجيب بخفّة دمه تلك:

ـ بيت يوسف عبد الجليل.

وأخرج المفاتيح من جيبه ثم فتح الباب وقال لي: أدخلي.

وقفت وقد تجمّدت رجلاي وقلت له:

ـ كيف أدخل؟

فقال مازحاً:

ـ برجلك اليمنى...

ضحكت وقلت له:

ـ ... أقصد... لن أستطيع الدخول... تفهم؟

فقال:

ـ احشمي على روحك، سأعرّفك على جدّتي، وحتماً ستكون قد حضّرت «زغيبس شخوثة»: (نوع من الخبز الذي يحضر في البيوت) أو أي شيء طيب مع قهوة وحليب المساء.

ـ لا.. لا.. (قلت له) قد تظن بي الظنون...

لكنه أصرّ:

ـ لن تظن بك شيئاً، ستفقد صوابها من الفرحة إذا رأتك.

ترددت قليلاً ثم دخلت.

وفعلاً كانت رائحة شيء طيب تملأ البيت، قلت لتوفيق وأنا أشمّ الرائحة بشهية:

ـ إنها رائحة «خبز الدّار».

فقال لي بالفرنسية:

ـ عشرة على عشرة.

لن أنسى منظر المكتبة العملاقة الممتدة من أول الرواق إلى غرفة الجلوس، مرتّبة بشكل جميل ملفت للنظر. لن أنسى طيري الكناري أمام زجاج النافذة الكبيرة المطلّة على المطر، لن أنسى رفوف أشرطة الكاسيت

والأسطوانات القديمة، ومنظر الصالون تحت أنوار ثريا تشبه المطر تماماً في يوم ربيعي.

كان صادقاً حين قال هذا الوجه الجميل لقسنطينة.

استأذن مني ودخل عبر رواق صغير إلى المطبخ، سمعته ينادي جدّته: مامّة (مع تضخيم لحرف الميم في المرتين) وقد عاد وهي معه بعد دقائق.

رحّبت بي كأنها تعرفني منذ زمن بعيد، امرأة في العقد السابع من عمرها، لكنها تبدو أصغر من سنها بكثير تماماً كأولادها، وجهها الناعم ما زال يحتفظ بآثار الجمال، ولون منديلها البنفسجي الفاتح تزاوج بشكل جميل مع لون عينيها الذي لم يكن لا أخضر ولا أزرق، ولا حتى بنفسجياً كان خلّاباً لا أكثر...

والدته...

هل كانت تعلم يوم أنجبته، أنها أنجبت رجلاً رائعاً يسحر قلوب مئات النساء، ويغيّر مجرى التاريخ قليلاً بوجوده...

لم تكن تعلم... كانت سعيدة ربما لأنه صبي وأسمته «يوسف».

كانت في يدها «فوطة»، وقد عرفت أنها أنهت تحضير خبزها للتو، أتممت مسح يديها، ودردشت قليلاً معنا، ثم

عادت إلى المطبخ فيما أمسكني توفيق من يدي، وقادني معه إلى غرفة أخرى، دقّ الباب ثم فتح، فإذا بقلبي يفلت مني.

يوسف أمام أوراقه على مكتبه، مكتب صغير بستائر سميكة مغلقة، تنيره الأضواء الخافتة، وجدرانه تواجهنا بصور أهليها بالأبيض والأسود تجمعه مع رفاق ميّزت منهم برمدين وبوضياف، لكن في إحدى زوايا المكتب كانت صورة كبيرة ومختلفة، ليس فقط لأنها ملونة، بل لأنها للفنان مارلون براندو.

أمّا هو فقد كان منغمساً في الكتابة قبل أن تقطع حبل أفكاره. كعادته قال له توفيق مازحاً:

ـ قارئتك الأولى لاحقتك إلى البيت اليوم.

خفض يوسف نظارته حتى صارت على أرنبة أنفه، ونظر إلينا تلك النظرة التي تحمل أكثر من معنى، واتسعت شفتاه حتى أطلّ ذلك الزيغ الجميل الذي يمكث بين سنيه الأماميين وقال لنا:

ـ يبدو أن هذا المساء سيكون مميزاً.

وكان مميزاً فعلاً، على الأقل بالنسبة لي.

في ذلك الصالون الذي تزيّنه ذاكرة قسنطينة، جلسنا

حول صينية «قهوة وحليب المساء» لنمارس ذلك الطقس الجزائري الذي لا يخلو من التميز.

قال يوسف وهو يسكب لي الحليب في كوب كبير:

ـ منذ سنوات قال لي رجل على مستوى عالٍ من الثقافة والمعرفة بتاريخ الجزائر، عدا أنه خفيف الظل سريع البديهة وذو نكتة عالية، إن ظاهرة «حليب المساء» هذه تعبّر عن نقص الحنان الذي نعانيه، (un manque d'affection) لكنني وجدت فعلاً أن الفرد الجزائري يعاني نقص الحنان خارج مزحته تلك.

ـ طبيعي (قلت له) إننا لا نعرف أن نعبّر عن عواطفنا.

فقال:

ـ تعرّضنا لأكثر من استعمار، على مدى آلاف السنين، فكان يجب أن نؤجّل عواطفنا إلى حين أن نستقل، وحين استقلينا... كان الوقت قد تأخر لاستعادة عواطفنا.

قاطعه ترفيق:

ـ غلطان... إننا شعب بدوي، طعامنا الأول هو الخبز والحليب، نأكل ما تنتجه أرضنا وحيواناتنا...

ونكزني وهو يقول لي:

ـ فككي يا صاحبة الفكيك.

قلت له بصدق كبير:

ـ أرجح الرأي الأول، دون إنكار الثاني.

قال:

ـ أعرف لن تقف ضد يوسف عبد الجليل.

نعم... لم يكن بالإمكان أن أقف ضده، كنت أصدقه، وأحب تصديقه وأحب تلك اللعبة التي يشتهيها قلبي: الامتلاء بحكاياه... قال توفيق مازحاً:

ـ برود الإنكليز كله من شاي ساعتهم الخامسة، نحن نتدفأ بدفء الحليب كل مساء، لننسى فجائعنا...

وقالت الوالدة وهي تستنجد بي بعينيها اللتين لم أحزر لونهما بعد:

ـ هكذا حين يكونان في البيت، يتحدثان ما لا أفهمه، دائماً، وجود الأنثى في البيت يعطيه دفئاً غير دفء الحليب الذي يتحدثون عنه...

ضحكت،

سررت بالأحرى، وأنا أتوهم أن مكاني في ذلك البيت قد تحدد وانتهى الأمر...

بعض ما تحلم به أحياناً يشبه أحلام الفقراء بـ «بابا نويل»... قلت لها:

ـ بيتك جميل، وأبناؤك رائعون.

لم أنتبه... حزنت فجأة، ولم أفهم لِمَ الحزن لكنها اختصرت ابتسامة وهي تتقبّل مجاملتي.

كان يوسف جالساً إلى جانبها، وقد تفاجأت وهي تمدّ يديها وتمسك برأسه وتقبّله كما تقبّل أي أم طفلها الصغير، ثم قبّلت كتفه فيما علت ضحكته تلك، وهي تقول:

ـ الأم في الدنيا لها أبناؤها، وفي الآخرة أعمالها.

ـ صدقت يا أم يوسف، صدقت.

قال توفيق وهو يقوم من مكانه نحوها ويعطيها خدّه:

ـ إنني أحتج، أريد حقي.

كان كل ما يدور أمامي يحرّك عواطفي بقوة، أهذا هو الوجه الجميل لقسنطينة، هذا البيت المملوء بالحب، ورجلان في منتهى الذكاء واللطف، وامرأة تشبه جدتي في عطائها...

قامت، قبّلتني أنا الأخرى، قبلة الجبين تلك التي لا يُمكنها أن تُنسى لأنها في الجبين، ولأنها تحتلّ مواقع الحب والاحترام معاً.

لم أفهم لماذا ننقاد وراء أثر لمسة مثل قُبلة أم يوسف نحو الحلم ذاته الذي ابتدأته لمسة يد سابقة.

قبّلتني... وقالت:

ـ سأقلب لك «شوية (قليلا)» من خبز الدارة لتفطري به غداً صباحاً. واتجهت نحو المطبخ.

أمي تفعل ذلك معنا أحياناً، لكن في قبلتها دائماً طلباً أو رجاء سرّياً لتعويضها عما فقدته...

أم يوسف، كانما تفعل ذلك مع أبنائها لتشكرهم في قبلة، أو لتبين مدى فرحها بمن أنجبت... أي شعور كانت تشعر به بالضبط؟

لا أدري...

لم أفكر كثيراً فيما حدث...

قادنا الحديث فجأة نحو الفن، حين سألت يوسف عن صورة مارلون براندو. قلت له:

ـ لماذا مارلون براندو مع الآخرين؟

فقال توفيق:

ـ بابا فنان، ويحب الفن الجميل.

وقال يوسف:

ـ «مارلون براندو يمثل مدرسة في الأداء، والتي هي مدرسة إيليا كازان، إنه ممتاز في أدائه» والأداء الجيد يقدّم فناً جيداً.

قلت:

ـ تحب الفن لهذه الدرجة مسيو عبد الجليل.

ـ من لا يحب الفن، إنه جزء من حياتنا اليومية، جزء من شخصيتنا أيضاً بحكم أنه جزء لا يتجزأ من المحيط الخارجي الذي يؤثر في تكوين شخصياتنا منذ الطفولة دون أن ننتبه لذلك.

فقال توفيق:

ـ والذي مثلك يؤمن بقدرة الفن على بناء الذات، هذا فلسفته في قراءة الوجوه، أمّا أنا فلي وجهة نظر.

فقال له يوسف:

ـ أنت أفكارك كلها متطرفة في هذا المجال.

ـ لا يحق لك أن تحكم بالتطرف على أفكاري لأنك منذ البداية كنت معارضاً على التحاقي بالجامعة الإسلامية ولهذا ترى أن كل أفكاري لها علاقة بها...

ـ لا أبداً، أعرف أن أفكارك علمية أكثر من أفكاري، لكن ما يتعلّق بالفن ليس اختصاصك.

نظر إلي توفيق قائلاً:

ـ بشرفك قولي لي، السينما أو تحديداً الفيلم المصور ألا يعني صورة مصغرة عمّا يحدث في الحياة.

قلت له:

ـ بشكل ما نعم.

فقال:

ـ ما المانع في اعتبار السينما محاولة لرؤية ما يراه الله، أو أخذ موقعه بمحاولة لصنع «ماكيت» للحياة ومراقبة ما يحدث عليها بالفرجة، بعد أن فشل الحكواتي، والنص المكتوب على بلوغ تلك المتعة؟

قاطعته وقد أصابني الفزع:

ـ أب... أب... بَا... بَا... بَا... إنك تفكر بطريقة مخيفة، هل تظن أننا بحاجة إلى نظرية كهذه في زمن يتمسك فيه الإرهاب بأي سبب ليزداد عنفاً.

قال:

ـ قلتها بنفسك، وهذا يعني أننا لسنا بحاجة إلى السينما.

قاطعه يوسف:

ـ شئت أم أبيت نحن في عصر السينما.

وقاطعه توفيق:

ـ غلطان يا أبي العزيز نحن في عصر الفرجة، وهذا يعني أننا نمر بأتعس فترة في حياة الإنسان، فترة تعويض الفقر المادي بالفرجة.

فقال يوسف:

ـ لا أدري كيف تدخل الموضوعات ببعضها بعضاً. قبل قليل قلت إن الإنسان يريد بلوغ السلطة الإلهية، لكن

الله يقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾، فهل يمكن أن يبلغها بصناعة فيلم، والذي أنت نفسك سميته «ماكيت»، وهي بحجم الذرة إذا ما قارناها مع عظمة الكون الذي أتقن الله خلقه، وهنا الإعجاز الإلهي؛ أظن أنه علينا أن نحاول دائماً بلوغ تلك السلطة لنشعر بعجزنا أمام قدرة الله... يبقى أن تسمّي العصر عصر الفرجة، عصر الجوع، عصر الفقر، هذه وجهة نظرك، عصر الأنبياء والرسل انتهى يا ابني، وعصر القديسين والرجال الصالحين أيضاً، اليوم لم يبق في أيدينا غير الفن لنحارب به الفساد.

ـ أنا قصدت المتعة.

ـ أنت تتحدث باللغة التي لا يفهمها العامة، وهذه مشكلة المثقف في المجتمعات العربية، لغته تفوق مستوى فهم مجتمعه ولهذا يُفسر كل كلامه خطأً...

ـ أنا أفكر كيف أخاطب مجتمعاً يفوقنا مستوى.

قاطعته:

ـ بوقف السينما؟

قال:

ـ أنا أقول لسنا بحاجة إلى سينما، نحن بحاجة إلى

الحقيقة المصورة، إلى التحقيق الحي، إلى كشف خبايا الواقع.

قلت:

ـ والسينما تفعل ذلك.

قال:

ـ كلام سينما يعني، من يصدقه، من يتحرّك لتغيير وضع ما يزعجنا بعد رؤية فيلم؟

قال يوسف:

ـ إنها وسيلة تعبير يا ابني وأحياناً وسيلة تعبير مزعجة لبعض الجهات، إنها كاشفة لحقائق وحاملة لأفكار...

قال توفيق:

ـ لا أحب التمثيل على كل حال، التمثيل أول فاعل حرّك الإرهاب، إنه يحارب الرذيلة كراجهة، لكن صُنّاعه يمارسون كل المحرّمات، كمن يضحك على المجتمع، يعني حلال عليهم حرام علينا، يجب أن يحاسبوا اليوم على هذه الازدواجية.

قال يوسف:

ـ هذا ما تعلّمته من جامعتك الرخامية؟ أنت لا تعرف أنّ الفنان الحقيقي حياته كلها أخطاء وأخطاؤه تلك هي

المصل الذي يحقن به نفسه قبل أن يتأكد من صلاحيته، ليستعمله الآخرون.

رد توفيق:

ـ لماذا تنزعج من بعض أفكاري؟

فقال يوسف:

ـ لا أنزعج، لكنك أصبحت تفكر مثل أغلب طلبة هذه الجامعة، أفقكم ضيق، لا تفكرون إلا في إقصاء ما هو موجود، كيف تواجهون الغرب غداً بكل ما لديه من قوة وإمكانات، كأنكم تحاربون ما هو موجود عندنا ليحل محله ما هو موجود عندهم لا غير، تنظفون لهم الساحات والأراضي والمصانع، وحتى العقول... ليتربعوا على عروش كل شيء. لاحظ أن المواطن العربي يشاهد الإنتاج المصري بمعدل أربع ساعات في اليوم حسب دراسة قامت بها طالبة عربية في بلجيكا ـ حسب معلوماتي ـ إذا ألغينا هذه الأربع ساعات استناداً إلى فتاوى خاطئة، وحاربنا سينماتنا وتلفزيوناتنا هل تظن أن كل الشعوب العربية ستغمض عيونها أمام برامج الهوائيات المقعرة وتنام باكراً...

قال توفيق:

ـ لا يكون هناك هوائيات مقعرة.

قال يوسف:

ـ لماذا ترفض حضارة الآخر؟

فردّ توفيق:

ـ أنت أول من رفضها.

وحلَّ بعض الصمت، لكن الحديث فيما بعد أخذ مساراً علمياً محضاً. ما أبهى أصواتهما.

ما أبهى حديثهما، وصراحتهما!

ما أبهى ذلك البيت...

يا الله...

كان كل شيء مهيأ لأنتهي عاشقة من جديد لأحدهما، للأكثر تجاوباً معي ربما.

لكن من هذه التي يمكنها أن تقاوم جاذبية رجل ذكي وناضج؟

من هذه التي لا تصاب بالإرهاق نفسه الذي أصاب به أنا حين أكون أمام يوسف وتوفيق معاً؟..

في ذلك اليوم بالذات، كنت على وشك الميل كل الميل إلى توفيق لكنني شعرت بذلك الخوف «العرقي» فينا والذي يتأهب للحرب كلما أطلّت عليه فكرة جديدة.

حين استأذنت للذهاب وقف توفيق ومدّ يده لوالده وقال له:

ـ أيرضيك أن تعود قارئتك الأولى إلى الحي في هذا الوقت المتأخر بمفردها؟

فمدّ يوسف يده إلى جيبه وأخرج مفاتيح السيارة وسلّمه إياها وهو يقول:

ـ لن أرضى طبعاً، لكن لا تحاول أن تسقط نصوصي من على رفوفها. . . وغمزه مبتسماً.

وقد حاولت رفض أن يوصلني بالسيارة، ولكنهما أصرّا، وقد رأيت ذلك الشيء. . . الشيء نفسه في عيني يوسف، ذاك الشيء الذي يسقط في عيني وينزلق نحو القلب. . .

تخيّلت أنه تواطأ مع أسباب كثيرة ليسلّمني لتوفيق، وربما فعل ذلك ليختبر صحة البريق الذي يقرأه دائماً في نظراتي، كنت صبية صغيرة أمامه. . .

لكن هل يمكن لمشاعر الأنثى أن تقاس بالسنوات حين تنبض بالحب؟ لاحقته بنبض مراهق، وسلّمته يدي لا لأصافحه، بل لأمسك بلمسة يده مرة أخرى.

تلك اللمسة التي أطلقت ألعاب النار في داخلي. لم أنظر إلى عينيه، خفضت نظري قليلاً لأرى يدي في يده، صغيرة تستقر في سمرة أراضيه، مغروسة بين أنامله،

دافئة، نشوى بذلك الاحتواء الذي اخترعته الحضارة ليختصر ما لا يمكننا البوح به حين ينتابنا جنون الحب.

تأمّله واقفاً تعتلي الكبرياء كتفيه...

ثم... خرجت أنا وتوفيق.

حين أصبحنا وحيدين في السيارة، عرفت أنّ توفيق استدرجني إلى جلسة حميمية وفق خطة قلب.

كان طعمها حليب المساء وخبز جدّته؛ طعم يليق بفتاة على وشك النضوج مثلي.

لم أقل له لماذا سلك الطريق نزولاً نحو «الابريش». أحببت أن يطول الطريق بعد أن حلّ الهدوء على المدينة.

قال لي:

ـ قسنطينة المدينة الوحيدة التي توصف بالثقافة والعلم وتنام باكراً. كانت الساعة تشير إلى السابعة مساءً تقريباً، وكانت المدينة لا تجوبها إلّا الأضواء وخيالات مشردين.

فجأة أشار توفيق إلى أحدهم وقال لي:

ـ هذا عيّاش يذاكر تحت عمود الكهرباء.

لا يمكن لذاكرتي أن تستعيد مدى قسوة البرد في قسنطينة، لا يمكنها أن تصرخ بلغة مدى جمالها ليلاً في ذلك البلاد، لكن ألمها كان كله جالساً في شخص عيّاش المنكمش دون معطف تحت عمود النور ليقرأ دروسه...

قلت لتوفيق أستفسر عن السبب:

ـ أزمة سكن؟

فأجاب:

ـ عندنا الفرد في حدّ ذاته أزمة. . . (سكت قليلاً ثم أردف) أربعة عشر فرداً في غرفتين، الصغار ينامون، والكبار يبحثون عمّا يؤجل نومهم عدة ساعات، عيّاش ينام في الرابعة صباحاً بعد أن يخرج أخوه محي الدين إلى العمل، أما أخوه السبتي فقد اختار الجبل.

سألته مذعورة:

ـ إرهابي؟

فقال:

ـ لا أدري كيف أسمّيه، منذ سنوات وهو عاطل عن العمل، وقد سافر إلى أفغانستان لمدة سنة، وحين عاد لم يمكث طويلاً بين إخوته، اختار «الجهاد في سبيل اللّه» حسب مفهومه الخاص.

ـ إنك تمزح.

ـ لا . . . لا أمزح للأسف.

ـ وصديقك يظل تحت عمود النور حتى الرابعة صباحاً؟

أجاب:

ـ لا، ينتظر حتى يخلو الجامع من «الإخوانجية» ويبقى فيه حتى مطلع الفجر، يصلّي ويعود إلى البيت، في السابق كان يذهب مباشرة إلى الجامعة لكن أتباع الفيس حوّلوه إلى قاعة اجتماعات وأحياناً إلى قاعة تدريب فصار يتفاداهم، عيّاش «حشيشة طالبة معيشة» مسكين. . .

ـ لكن كيف يتدرّبون في الجامع؟

ـ ختا عندنا «الجامع والجمعة والجامعة» ثلاثة: عرف كيف يستغلّها «الفيس» لصالحه، ويستفيد منها.

ـ والدولة؟ والمخابرات؟

ـ مخابرات؟. . . اذهبي إلى بار فندق سيرتا ستجدين المخابرات، هل تعرفين أن «الأفلان» حين أعلن الثورة ضد فرنسا منع على أتباعه تعاطي الخمور، اسألي يوسف عبد الجليل قد يعطيك التفصيل وحتى إقامة علاقات خارج إطار الشرع مع النساء؛ كان مبدأهم الأول التزام قوانين الإسلام، أمّا الثاني وربما الأهم فلأنه لا أحد يمكنه أن يبيع وطنه وهو في وعيه، كان ذلك الالتزام يقوّي إيمانهم بالقضية ويمنعهم من أي خطأ قد يسيء إلى الثورة.

ـ عفواً، ألا تعتبر الزواج بأجنبية خطأً في حق الثورة، لمن فعلوا ذلك بعد الاستقلال؟

ـ هذا اتهام جديد ليوسف عبد الجليل

ـ لا، ولكن الالتزام يجب أن يتمسك به أكثر بعد الثورة.

ـ والدي كان يبحث عن مستواه الثقافي كما كل الذين تزوجوا بأجنبيات، كان قد سبق زمنه بكثير، أحياناً أشعر أنه من ذات سنّي، لأنه يساير قضايانا، يفكّر بروح الشباب التي نفكّر بها نحن، لكن مشكلته مع والدتي كانت الدين والتقاليد، ولهذا انفصلا، أراد إنقاذ ما تبقى من حياته بإنقاذنا من مجتمع عرف كل مساوئه، لكنه تأخر في اتخاذ القرار.

ـ تأخر؟

ـ أختي «كاتيا»، لم تحتمل العيش في الجزائر، إذ لم تمكث هنا أكثر من سنتين تقريباً، فرّت إلى باريس، وقد لحق بها والدي، لكنها كانت قد غادرت باريس مع شاب إيطالي، كل ما نعرفه عنه أن اسمه «ريكاردو».

ـ لا أصدق!

ـ لا.. صدقي... وصدقي أكثر مما يجب فالشعر لا يتبعه إلّا الغاوون...

ـ هل المسألة متعلقة بالشعر؟

ـ مشكلتك أنك تقرأين يوسف عبد الجليل وهو يقف أمامك لحماً ودماً، دعي الأدب على جنب، واقرئيه

كإنسان، تذكّري أنه كان شاباً، له عنفوانه، نزواته، أفكاره المراهقة، وكل طيش الشباب، اليوم في أواخر الخمسين، صار في مقدمة أفكاره، وقبل هذا العمر كان يلهث وراء أفكار غيره، هكذا الأدب.

ـ هل تقصد أنه أخطأ في حقكم؟

ـ هو ووالدتي، هل تعرفين متى قرّر والدي أن يعود بنا إلى الجزائر؟ حين وجد أختي مصادفة وهي ابنة الخامسة عشرة بين أحضان شاب فرنسي في عقر داره، فيما أمي مشغولة باحتساء قنينة نبيذ جزائري، وبكتابة قصيدة، وحين ثار عمّا حدث، وصفته بالعربي القديم، ففي منطقها الأنثى بحاجة إلى ذكر حين ينضج جسدها وطبيعي جداً ما فعلته كاتيا، بالنسبة إلى والدي كان لحمه يغتصب للمرة الثانية، وكان عليه أن يعلن الثورة من جديد لكنه هذه المرة لم يهتد إلى تنظيم دقيق مثل «الأفلان» لتحقيق استقلال جديد.

ـ تحزنني بهذا الخبر هل تعرف؟

ـ تصوّري حزنه هو... رغم ذلك الهدوء المخادع الذي يلازمه، أنت لا تعرفين طيبته بعد، وكم هو حساس، وكم هو متعاطف مع كل من يشكو له وجعه، لا تعرفين انفعاله، غضبه، إنه مفرط في كل شيء من هذه

الأشياء، مرة كاد يقتل أحد الصحافيين لأنه كان يُدخن في أحد مراحيض دار الصحافة في شهر رمضان، كسر عليه الباب، وظل يضربه حتى تدخّل الزملاء لإنقاذه، تصوّري أن الكل يعمل له ألف حساب، لأنه يفاجىء الشخص أحياناً بتغيير ما يراه خطأً بالقوة، وحدث مرة أن وجد في مدخل إحدى العمارات وهو يزور صديقاً له شاباً وفتاة يقبّلان بعضهما بعضاً، أمسك الشاب وصفعه صفعة واحدة، جعله يطلق ساقيه للريح، أما الفتاة فقد قال لها: أنظري إلى الجبان الذي تحبين تركك وهرب، فصارت تبكي وتستسمحه... تستسمحه هو (قالها ضاحكاً) لخوفها منه.

ـ إنه رجل مسؤول.

ـ إنه رجل جرّب كل أنواع الحياة. شبِعَ.

ـ ما الفرق؟

ـ حياته مع والدتي كانت كلها خلافات حول الملابس والمآكل وطريقة الاغتسال، يصر أن ترتدي ما هو محتشم، وتصرّ على استفزازه بارتداء كل ما هو فاضح، يترجّاها أن تقلع عن شرب الكحول، لكنها كانت تشرب حتى تثمل، وكان يقول لها إن الإنسان الغربي غبي، اخترع «البديه» ليستعمله مرة في الأربع والعشرين ساعة

هذا إذا كان ابن عائلة نظيفة ويتعايش مع وسخه طوال اليوم لأنه يكتفي بتمسيح مؤخرته بالورق.

قاطعته:

ـ لا . . . لا تقل إن الفرنسيين هكذا، إنهم يبدون أنظف منا؟

قال:

ـ مظاهر. . . إنهم أوسخ الشعوب في العالم.

ـ لكن والدتك مثقفة، والاغتسال سلوك صحي فلماذا ترفضه؟

ـ من شبّ على شيء شاب عليه، ولاحظي أنّ والدتي أيضاً كانت تجد ما ترد به، كانت تقول لوالدي: إني أرى أبناء مجتمعك ذوي المؤخرات النظيفة كيف تنبعث منهم رائحة العرق. وكان يردّ عليها قائلاً: هؤلاء لا يعرفون الإسلام جيداً، وبيني وبينك لقد صدمت حين وصلت إلى الجزائر منذ نصف الساعة الأولى، حين دخلت دورة المياه لقضاء حاجتي، مراحيض المطار مثل المراحيض العمومية ومثل مراحيض الجامعة طافحة بالوسخ، وحيطانها تحمل أكثر من دعوة لممارسة الجنس مع رسوم غير مكتملة لجهاز الأنثى؛ هذا غير العبارات البذيئة المتعلقة كلها بالجنس، وأسئلة وردود، يتلذّذ كتابها لتفريغ شحنة الكبت

الذي يعانون؛ يومها تذكّرت ما كان يقوله والدي لوالدتي في ساعات الغيظ ذاك، عن أن شارل ديغول نفسه اعترف في خطاب علني أنّ الشعب الجزائري مثال في النظافة رغم ظروف السجن والحياة في الغابات والفقر وغيرها، ويومها تساءلت ماذا لو أن ديغول زار الجزائر في عز استقلالها؟ وما زلت أتساءل إلى اليوم من المسلم نحن أم الغرب؟ الغرب يلزمه «رتوشات» بسيطة لحياته ليحقّق فعلاً ما هو موجود عندنا في القرآن، أمّا نحن فيلزمنا الكثير.

ـ لهذا السبب التحقت بالجامعة الإسلامية؟

ـ لهذا السبب... كان بودّي أن أفهم هل العيب فينا أم في الدين؟ هل العيب في والدتي أم في والدي؟ أسئلتي كلها نبتت من هذا التناقض الذي عشته، وقد حاولت أن أجد مسلكاً وسطاً أتقبّل فيه ما يحدث وأعيش فيه على الطريقة التي أريد فلم أجده إلّا هنا (وأشار إلى رأسه) لا مكان لهذا المسلك على أرض الواقع.

قلت:

ـ غير صحيح هناك دائماً من يشبهنا.

ـ كنت صغيراً حين أقنعني والدي بطريقة علمية أنّ لحم الخنزير يضر أكله، لكنني صدمت في أحد العشاءات العائلية المميزة حين حضّرت والدتي طبقاً خاصاً من لحم

الخنزير لضيف عزيز، حين عرفت أنه طبيب، يومها سألته كيف يتناول لحم الخنزير وهو يعرف تماماً أنه «يسبب الإصابة بديدان التريخينيا والتي لا توجد طريقة لوقف تقدمها حالما تحدث الإصابة»؛ كان يجب أن أسأله، لأنني كنت مقتنعاً حسب ما قرأته من كتب كلها لدكاترة فرنسيين أن لحم الخنزير مضر، ليس هذا فقط، ففي «أنحاء العالم التي يكثر فيها استهلاك لحم الخنزير، وحيث تؤكل منتجات هذا اللحم نيئة في الغالب يصاب أكثر من شخص من كل خمسة أشخاص، ولعلّ العديد من الأوجاع والآلام التي يعزوها الناس في تلك المناطق إلى أسباب أخرى هي في الواقع ناتجة من إكثارهم تناول لحم الخنزير، وهناك حالة من عشرين في الأخير تصاب بالموت».

أجابني الحكيم بنبرة فيها سخرية على مسلم صغير، قال لي: لم يعد هناك أثر لهذا المرض اليوم، هناك برّادات.

فسألته: ماذا لو تأقلمت طفيليات الدودة مع درجات الحرارة المنخفضة مثلما تأقلمت عصيات السل وطفيليات أخرى مع ظروف حياتية جديدة؟ ماذا لو كنت أنا وأنت من الطبقة الفقيرة التي لا تملك برّادات؟ ماذا لو صادفتنا

حرب وعقلت أهم كماليات الحضارة لمدة ستين؟... هل تعرفين أن مبدأ الإسلام الأول هو «الوقاية خير من العلاج»؟ لكن ضيفنا لم يعطني يومها أي تفسير، وعلى الرغم من ذلك لاحظت شيئاً من الإعجاب في لهجته وهو يلتفت نحو والدتي ويسألها:

ـ كم عمر هذا الصبي إذاً؟

والعجيب أنني بعد سنوات، عثرت على دراسة في إحدى المجلات العلمية تثبت أن كل ما نتناوله له تأثير في سلوكنا، ذلك لأننا نتناول جيناته التي تختزن سلوكه، هنا تذكرت والدي حين قال لي إن الخنزير هو الحيوان الوحيد الذي لا يغار على أنثاه، وأن الغرب لا يغار على إناثه مثلنا.

قلت له ضاحكة:

ـ نحن نكتم أنفاسهن.

فقال:

ـ نحن نحاول حمايتهن، لكن يلزمنا بعض الثقافة لنصبح متزنين في تصرفاتنا.

نظرت إليه نظرة فيها شك ومزاح:

ـ وأنت ألم تذق لحم الخنزير قط؟

ـ قد أكون أكلت في مراحل اللاوعي في صغري،

لكنني على كبر، اقتنعت، ثم إنه حيوان قذر، القذارة شيء غريزي فيه.

ـ إذا كان ما تقوله صحيحاً فكيف يتقبل الغرب الفكرة؟

ـ الغرب في مجمله مسيحي، والمسيحيون أناس يحترمون دينهم رغم كل شيء، ربما إلى درجة مناقضة حقيقة علمية، وليسوا مثل المسلمين، فما أكثر مثقفينا الذين يناقضون العلم من أجل مناقضة الإسلام، والسخرية منه! أنا أتصور لو أن تحريم الخنزير ذكر في الإنجيل لمسح الخنزير من على وجه الأرض مسحاً... أوه لويزا ليت المسألة توقفت عند لحم الخنزير، أنا عانيت مما هو أشد.

نظر إلي قليلاً كأنما ينتظر مني أن أسأله ما الأشد لكنني لم أفعل، كان ليل قسنطينة يشدني، أضواؤها المتعانقة، هدوؤها المخيف، وحشيتها، أشباحها، ... ولا أدري إن كانت كل المدن شبيهة بها في الليل، أم أنها مدينة متفردة بذاك الجمال. كدت أقول لترفيق: أحبها،

لكنه سبقني حين واصل كلامه من جديد:

ـ ما عانيته أكثر هو تأثير الكحول.

قلت له بدهشة:

ـ أدمنت؟

قال:

ـ والدتي شبه مدمنة، في البداية أظن أنها تزوجت والدي كتأكيد لمناصرتها القضية الجزائرية، تباهت بذلك الزواج في السنوات الأولى، ثم لم تعد تستطيع مقاومة تلك الإشارات الخفية التي يرسلها الساخرون إليها، أحياناً عند نقد نصوصها، في الندوات والملتقيات، وأحياناً في اللقاءات العائلية، حين تدخل في نقاشات رأسها دائماً زوجها الجزائري المسلم. هل تعرفين تعاطي الكحول «ولو بكميات قليلة يؤثر في دقة الكلام للشخص وسيطرته تماماً على قدراته العقلية، وقد يلجأ الإنسان أحياناً إلى الكحول كي يخمد ضميره» «الحركة». كانوا كلهم يتعاطون الكحول، «فالفرد الذي يحترم نفسه عادة، ويتقيد بأحكام القانون يوافق بسهولة تحت تأثير القليل من الكحول على السلوك الشرير، ويعتمد بعض الناس الذين يشعرون بالخجل وعدم الأمان على جرعة من الكحول كي يمكنهم فعل الأشياء التي قد يترددون في فعلها من دونه ومن السهل أن يلجأوا إلى الشرب بانتظام بعدها، ومن هنا يبدأ الإدمان عند الأشخاص المكبوتين، أو غير المتكيفين، عدا إصابات بأمراض أخرى مثل ذات الرئة نتيجة الشعور

الخاطيء بالدفء، والتعرّض للبرد، أو الأمراض الزهرية، أو تليّف الكبد.

قاطعته:

ـ توفيق أحياناً تتعبني بمحاضراتك، يكفي ما سمعته اليوم عن الفن والدين وكل ما أثرته أنت ووالدك من حديث، دعني أستمتع بذكرى خبز جدتك.

ـ تقولين هذا الكلام لأنك لم تعيشي ما عشته، أستاذتك متخصصة في الأدب وحقوق المرأة، يزعجك أن نجيب محفوظ سرقه منا الغرب مع أنه في نظري فرض أدبه على الغرب، ولا يزعجك أن مشروعاً غربياً يعمل على تخريب خلايا العقل العربي يتسلّل إلينا بتصريح وترحيب منا، لا يزعجك أن الأسرة عندنا رغم تماسكها عنصر مفكك في الداخل، غير منتج، والأسرة عندهم رغم تفككها تعطي أفراداً منتجين، لا يزعجك أن مجتمعهم المدمن أو المتعاطي للكحول له القدرة على تسيير مؤسساته بدقة، وإنجاب علماء، وقادة أقوياء، ونحن رغم كامل قوانا العقلية ضائعون بين الحانات والجبال والأرصفة المتخمة بالعباد، لا. . . وفوق هذا نذبح بعضنا بعضاً، كيف يمكننا إقناع العالم بروعة إسلامنا، بجماله، بسماحته، حتى إعلامنا، يصرّ على تقديم شيوخ بلحى مخيفة، وأصوات

حادة، لا يتحدثون إلا عن النار والعقاب و... و... و...

كان قد انفعل قليلاً حين بلغ هذا المنعرج من الحديث، فقاطعته:

ـ توفيق... أنا لا علاقة لي بما يحدث في العالم، لكن يعنيني ما تعيشه أنت بين عائلتك، وفي محيطك الصغير.

ـ محيطي الصغير هو سبب المشكلة، هو سبب كل أسئلتي الكبيرة، هل تظنين أن عباسي مدني اخترع هذا التيار من مخيلته، لقد أبعد عن الجزائر بمنحة دراسية إلى إنكلترا، لكن احتكاكه بالغرب جعله يكتشف حقيقة الإسلام أكثر، بقي اختياره للطريقة التي يحقق بها أفكاره هو الشيء الذي لم يعطه مزيداً من الوقت والاستشارات لينجح.

ـ هل تعرف... لا أفهمك أبداً في أي صف أنت...

ـ أنا في صف والدي في الأخير... في صف عبد الجليل... يوسف...

ـ ألهذا الحدّ لم تكن لوالدتك أي ميزة؟

ـ والدتي شاعرة، والشعر ابن النزوات، لكن إن جئت للحق أنا أحتفظ بذكريات جميلة عن جدّتي «الجينة» ربما

لأنني أميل للدين أكثر، وهي مسيحية متدينة، مسالمة، محبّة للخير، أذكر ليلة عيد الميلاد، عندها، الشجرة المزيّنة، الهدايا، الأغاني الهادئة الجميلة، ابتسامتها التي تملأ البيت، فضّياتها التي لا تخرجها إلّا في المناسبات، شراشف العيد التي تجعل من البيت حديقة ربيعية، طعامها الشهي، وكنت أتساءل وقتها من أحق بهذا العيد نحن أم هم؟... هل يمكن لإسلامنا أن يكون صحيحاً دون الإيمان بنبوة عيسى عليه السلام، طبعاً لا، وهذا مذكور في القرآن، إذاً لماذا تبالغ نحن في رفض عيد كهذا؟ جدتي «إجيني» كانت تحب والدي وتحترمه حتى إنها تعمل في شهر رمضان على تحضير الأطباق التي يحب، فتركض إليه بأطباقها قبل موعد الإفطار وتسايره.

ـ جدتك؟

ـ في طيبتها ونعومتها لا يمكن أن تجدي فرقاً بينها وبين أم والدي التي رأيتها، وأظن أن جدتي «إجيني» كانت السبب الرئيسي الذي ربط والدي بوالدتي كل تلك السنين، كان له أمل في أن تتغيّر وتهدأ براكينها، وتتوقف عن ذلك التطرف الذي تمارسه عن غير اقتناع لا بدينها ولا بدين والدي... غير ذلك كانت...

سكت قليلاً فقلت له:

ـ غير ذلك ماذا؟

ـ غير ذلك، كانت تحتاج دائماً إلى نزوة لتكتب مزيداً من الشعر.

ـ غريب ألم يكن يعلم ذلك من قبل؟

ـ الحب أعمى ma belle (يا جميلتي).

كنا قد صرنا بين الطريق المختصرة بين عمارة العلوم، و«زوزارة» حيث كلية الهندسة. أوقف السيارة قبل بلوغنا الطريق العام تحت الأشجار، وانطلق عدّاد قلبي بأقصى ما لديه من سرعة فقلت له والفزع يلف صوتي:

ـ عد بي إلى «نحاس» يا توفيق، أنا لست مستعدة لأموت بتهمة كاذبة.

ضحك وكأنه يستلذ خوفي:

ـ ألا تريدين أن تسمعي قصة الحب المجنونة التي جمعت الكاتب الجزائري الكبير يوسف عبد الجليل بالشاعرة الفرنسية إلزا برونو؟

قلت له غاضبة:

ـ لا أريد... أريد أن أكون في غرفتي الآن.

تغيّرت سحنة صوته... صارت أكثر تعثراً بألم ما، وكأنما بدمعة ما، لم أستطع أن أراها في العتمة المحاصرة للمكان:

ـ ظننتك قريبة مني.

قاطعته بنبرة الغضب نفسها الذي انتابني:

ـ ليس في هذا المكان.

لم يأتني صوته لمدة دقائق. وظل الصمت يحاكي أنفاسنا، حتى أدار السيارة من جديد، وعدنا نزولاً.

حين اقتربنا من حي «فيلالي» قال لي مرة أخرى بصوت فيه كثير من التضرع:

ـ لم أقصد الإساءة إليك، وأظنك تعرفينني جيداً، لست دنيئاً لويزا، لقد أردت أن تسمعيني فقط، في مكان هادىء، صدقيني أنا بحاجة إلى التحدث معك.

ـ بإمكاننا أن نتحدث غداً في الجامعة.

ـ ضرب بيده على المقود وأدار رأسه صوب النافذة بحركة سريعة وغاضبة، وقال:

ـ في الجامعة؟ لويزا... إنك تلعبين بمشاعري، وتحرقين أعصابي في الجامعة أنت مع حنان دائماً، أو مع نرجس أو مع سعاد أو آسيا أو أي واحدة من زميلاتك كأنك بحاجة إلى حرس خاص، أو كأنك تتعمدين أن لا تكوني وحيدة، في دار الصحافة إنما مع الزملاء أو مع والدي، حتى أني أشعر بالغيرة منه أحياناً، ماذا تقولان طوال ساعة أو ساعتين معاً... وحدكما... في أي...

قاطعته بغضب:

ـ أظن أن باب مكتبه دائماً مفتوح، ورجاءً لا تجرح كرامتي مرة أخرى.

صرخ في وجهي بغضب حقيقي هذه المرة:

ـ لا تقاطعيني... تعلّمي أن تسمعيني ولو مرة واحدة، ... في حياتك... أنا... دون كل هذا العالم، أنا أحبك لويزا... mais merdre à la fin إنك تشبهين والدتي بشكل غير معقول... لك فلكك الخاص الذي تحشرين فيه كل الناس في بوتقة واحدة... أنا... أنا يا لويزا... أنا توفيق عبد الجليل... فرد ولست جماعة، فرد، كيان مستقل... أريدك أن تشاركيني عالمي الخاص جداً، عالمي الحميمي الذي لا يملكه أحد غيري والمقابل أريد منك الشيء نفسه.

هدأ قليلاً ثم واصل كلامه فيما بقيت أنا صامتة:

ـ أحياناً... أحياناً فقط أشعر أنك تبادلينني الشعور نفسه فيما في أكثر الأحيان أشعر أن هناك عشيقك السري الذي يبعدك عني... ثم أشعر أنني أكرّر حياة والدي بشكل ما، حتى اسمك يكاد بطريقة ما أن يصبح إلزا... وأكاد أكون رجل الاحتياط في حياتك لا غير...

سكت...

أحسست في صمته بكاء... في الحين الذي ظلت وخزات حديثه تقرص جسدي، وانبعثت ذكرى سماح أمامي، ففكرت في نفسي، في قدري الذي يشبه قدر أمي...

فكرت في قراءته لي... لم يكن في الأخير يقول شيئاً غير الحقيقة ولذلك صعب عليّ أن أوازره بأي كلام قد تكون له علاقة بالعاطفة بل حاولت أن نبتعد معاً عن كل أشكال التوتر بصدق... قلت له:

ـ كنت سعيدة جداً هذا المساء... أرجو ألا تثور لنظل ذكراه جميلة عندنا معاً.

خفت وطأة صوته، عزفت عزفها من جديد:

ـ ليس مستحيلاً ما أطلبه منك، أريد الوضوح... لا شيء غير الوضوح لوضع الحدود النهائية لعلاقتنا.

انتظر أن أجيب، فلم أفعل، رحت أفكر في الصيغة الأقرب إلى تفكيره، فيما مدّ يده إلى الراديو وكبس زر تشغيله فانبعث صوت ميراي ماتيو:

- Chaque matin je t'aime un peu plus fort

(كل صباح أحبك أكثر قليلاً من ذي قبل).

قال: أحبها حين تغني فقط.

ارتفع صوتها مرة أخرى:

- Allo... est-ce-que tu m'écoutes encore?

(ألو، هل ما زلت تسمعني).

- moi je vis de ton sourire

(إني أعيش بابتسامتك).

- moi je vis de ton regard

(إني أعيش بنظرتك).

قلت له:

ـ أحب هذه الأغنية لكني أحب فيروز أكثر، أعشقها.

انبعث صوتها خفيفاً:

et laisse moi te dire que je t'aime

(دعني أقول لك إني أحبك).

واصلت حديثي:

ـ فيروز لا تغني، إنها تحرك القلب.

قال:

ـ تحبينها لهذا الحد؟

قلت:

ـ أحبها فقط، أشعر أنها ستجرني ذات يوم إلى بيروت.

قال:

ـ عجيب!

قلت:

ـ العجيب أنني ولدت في اليوم نفسه الذي ولدت فيه.

ابتسم وقال بدهشة:

ـ والله؟... مصادفة عجيبة فعلاً.

ثم ابتسم أكثر وقال بخبث:

ـ إذاً أنت من أصحابنا العقارب الناعمين، والعشاق الأوفياء، مَن هذا الذي استحوذ على قلبك ولا تستطيعين الإفلات من شباكه؟... لا تجيبي... أعرف كم أنتم قطيمين في الكتمان... فلا تضيِّعيني بإجابة والسلام...

كان قد لفّ من قرب حي «جمال عبد الناصر» واقترب من مبنى الإذاعة والتلفزيون، ثم توقف بعد بوابته بقليل. ابتسم...

وترك يده المملوءة بالحب تغازل شعري القصير، وغنّت أصابعه أكثر من أغنية حب قرب أذني... ذقني... شفتي... ثم جاء صوته:

ـ أسأل نفسي دائماً كم من الوقت يلزمني لأستوعب سر جمالك؟

ابتسمت... وكدت أضحك... وأنا أقول له مازحة:

ـ الحب أعمى.

مدّ سبابته من جديد، ووضعها على عيني وبحركة سريعة وعادلة وضع إبهامه على عيني الثانية.

صرت مغمضة العينين.

ولن أنسى...

قال لي: عادة ماذا تهدي من تحب؟

قلت له بفرحة الأطفال:

ـ أحضرت لي هدية؟

فقال: أنت ستهديني هدية.

ورمى بشفتيه على خدي، قبل أن أستوعب ما يفعل. أمسكت يده، وأزحتها عن عيني وأنا أتحسس دفء شفتيه.

ـ توفيق (قلت له، ولم أكمل لأنه قاطعني وهو يضم يدي إلى صدره).

ـ لا تقولي شيئاً، كان هذا المساء استثنائياً، دعيه يظل كذلك.

في غرفتي تناثر الفرح مني، وأنا أرقص مثل فراشة مقبلة على الحياة في لحظاتها الأولى.

لكن لا أدري لماذا خطرت ببالي مقولة للكاتب سليم بركات يقول فيها «عمر الفراشات قصير» وكأنه يقصد فرحي بالضبط؛ ولهذا أسرعت في فتح لفّة الخبز لأشمّها من جديد، تلك القطع الشقراء المزيّنة ببذور حبة البركة. وضعتها على الطاولة أمام نرجس التي تجاهلتني تماماً، وقلت لها:

ـ أنظري ماذا أحضرت.

قالت لي ببرود دونما اكتراث:

ـ لا توقظي حزني بتصرفاتك الصبيانية.

قلت لها كمن يود تصحيح خطأ ما:

ـ أردت أن أوقظ فرحك يا نرجس.

فردت:

ـ إنما الأعمال بالنيات، شكراً.

همست مازحة:

ـ تذوقيها ثم قولي شكراً... إنها من صنع حماتي.

نظرت إليّ وقد رأيت الفرح يستيقظ فعلاً في عينيها، وقالت لي وهي تحاول كتم ضحكتها:

ـ أحسدك أحياناً على خيالك الواسع.

ربما كان خيالاً... أو شيئاً يفوق الخيال... لكنه أجمل ما أعيش وأجمل ما ضمد خدوش الداخل فيّ.

تلك هي قدرة الروح على السفر، على التحرك، على التواصل واختصار المسافات بيننا وبين أناس نحبهم، نفعل ذلك ربما من أجل ألا تموت أجسادنا من الوحدة، تنقذها من ذلك الشعور المر بالاغتراب وسط (أهل) لا يتجاوبون معنا. تلك قدرة الروح على تضميد جراح الذات... الحلم!

وحتماً بين أحلامنا وبين الواقع مسافة تكاد تؤول إلى الصفر وتكفي لأن يقال عنا مجانين، ولذلك تجد في التاريخ أكثر من مجنون عبر حزنه بأحلامه، وقد يكون ليوناردو دي فنشي بموناليزته واحداً منهم، وأنا في هذه الحالة مثله تماماً.

قلت لنرجس:

ـ سأدعو ماجدة وعلجية لتشاركانا الوليمة؟

فأجابت وهي تمتعض:

ـ ماجدة؟ بالله عليك لماذا تحبين الشواذ؟

قلت:

ـ غريب كل من له مزاج فنان تلفقون له تهمة الشبهات.

ـ لا دخان بلا نار.

ـ يا سلام... إذا كان لا دخان بلا نار فعليك أن تقبلي أن أخاك مات إرهابياً.

تغيّرت نظرتها نحوي وهي تقول لي:

ـ أحياناً أشعر بالندم لأني أحدثك عن خصوصياتي.

ـ عظيم... ولا تشعرين بالندم وأنت تتهمين فتاة بالشذوذ الجنسي في فترة كهذه يقتل فيها المرء بأي سبب مهما كان تافهاً.

ـ قولي هذا الكلام لمن يعرفها أكثر مني ومنك، بنات الحي كلهن يعرفن ذلك.

ـ أنا سأقول لك من يقول ذلك... إنها سميرة تلك العقرب التي سمّت نفسها أم عقبة، حين طردتها ماجدة من الغرفة... البنت فنانة، وتحب الهدوء لتعمل، وسميرة قلبت الغرفة إلى زاوية درويشة.

ـ حين تعرفين معنى الإسلام جيداً ستغيرين رأيك.

ـ يا سلام... والإسلام لا يمكنني أن أعرفه إلا من أم عقبة التي تنبعث منها رائحة العرق، لتستحمّ كما أمرنا الله قبل أن تعمل على «نشر الدعوة» بالإشاعات.

وضعت بعض قطع الخبز في صحن وتركت بعضها على المنضدة وهممت بالخروج وأنا أقول لنرجس:

ـ اشتري لها زجاجة Déodorant (مزيل للروائح) ما دام «إذاك عليها الثيّ».

وخرجت...

ذهبت عند ماجدة؛ كانت أنغام «كلايد رمان» تملأ الغرفة وعلى الأرض أوراق وألوان، ولوحات... وكانت هي وصديقتها علجية منهمكتين في العمل وفي حديث يشبه الشجار...

قالت لي ماجدة وهي تقصد علجية بالحديث:

ـ لا يكفي أنّ اسمها لا علاقة له بالفن، ذوقها أيضاً لا علاقة له بالفن.

سألتها مازحة وأنا أغمز علجية:

ـ لماذا تحبينها إذاً؟

فقالت:

ـ الله غالب (مغلوبة على أمري).

وقالت علجية:

ـ أنا الشر الذي لا بدّ منه، أو قولي أنا العقل المدبّر، ماذا كانت ستفعل في الامتحانات لو لم أكن إلى جانبها في تاريخ الفن العام والرياضيات والأدب.

وقفت ماجدة وراءها حاملة مسطرة، وراحت تقوم بحركة من يضرب الثاني على رأسه وهي تقول:

ـ وهذه إشاعة أخرى عني.

ماجدة كانت تعرف كل الإشاعات التي تتسلّى عديمات الضمير بحبكها عنها نتيجة لذوقها المختلف في تسريح شعرها ولباسها وملازمتها لعلجية في كل شيء تقومان به، وحتى الحمام الذي تستحمان فيه معاً أسمتاه «حمام الملاطيلي» نكاية في من أطلق عليها إشاعة الشذوذ.

أذكر ذلك الفيلم جيداً، أهدته لي حنان في عيد ميلادي، وقد شاهدته عند سعاد ونوال لأن غرفتهما مجهزة

بكل الكماليات بما فيها جهاز فيديو تستعيرانه أحياناً من عند صديقهما باديس.

شاهدت الفيلم، وأعدت مشاهدته في كوابيس ليلية لم تتركني بسلام إلّا بعد عدة أيام، إذ بات «رؤوف» يطاردني في كل مكان تحل فيه أحلامي. أدهشني أداء يوسف شعبان، وأذكر أن حنان قالت لي:

ـ لا يوجد فنان عربي بهذه الجرأة، كان يجب أن يُكرَّم بجائزة.

يومها قلت لها:

ـ الفيلم سُحب من السوق، يعني صار في خبر كان، وأستغرب كيف حصلت عليه. ولهذا لم يحصل لا على جائزة و«لا عشّاره» مجتمعنا يعرف أنّ الفن تركيبة ذكية لفضح بشاعاتنا، ولهذا ستقصى أي محاولة جريئة لكشف عاهاتنا. لكن هذا الفنان ذات يوم، أهديه أنا جائزة، عن جرأته، وعن كل أدواره الجميلة.

يومها قالت لي بمزاحها ذاك:

ـ واشْ تهْديه. . قرْعة ريحة؟ (ماذا ستهديه. . . زجاجة عطر؟).

قلت لها:

ـ سأهديه جزيرة. . . أو شاطيء حب كشاطيء الفتيات

الصغيرات بالقل... عندي شعور أنني سأصبح ثرية ذات يوم.

فقالت:

ـ لالا اغنية المزيغ خيز... ألهذه الدرجة تتوقعين أن تصبحي ثرية... الصحافيون والكتّاب أفقر خلق الله...

ماجدة أيضاً أحبّت الفيلم، ومن يومها استعارت اسمه، لتطلقه على الحمام النسائي الذي تتردد عليه مرة في الأسبوع مع علجية. لكن تلازمهما لم يكن فيه أي شبهة، كان لذيذاً كذلك مثل القائل «عيشة وبالنذور».

حمام الملاطيلي... يا للتحدّي!! ورغم ترددي على الحمام نفسه إلّا أني لم ألتقيهما فيه... التقيتهما لأول مرة في مكتبة الجيش بـ «La Place» (لا بلاس) كانتا تشاركاني في الطاولة أمام النافذة المطلّة على السماء...

قالت ماجدة:

ـ أنظري ألوان السماء ليست ناجحة اليوم.

تأفّفت علجية وقالت لها:

ـ حتى ربّي سبحانه عندك عليه نقد... أستغفر الله يا دمي.

وكانت تلك أول مشاجرة بينهما أحضر فصولها المثيرة

للضحك وفيما بعد تعوّدت على شجاراتهما الخفيفة تلك، بل بالعكس، كان من غير الطبيعي أن يمرّ يومهما هادئاً دون خلافات.

تعرّفت إليهما أكثر، لدرجة جعلتني أتعرّف إلى كل أفراد صفهما ليلى... عيسى... جمال... صليحة... عاطف... زهية... والآخرين...

وبسببهما أحببت مدرسة الفنون الجميلة قرب مبنى البريد بوسط المدينة، أحببتها أكثر من الجامعة، وأحببت طلبتها وعفويتهم، وحريتهم في تلقّي الدروس... الموسيقى، الحركة.. وتلك العلاقات الفضة بينهم..

ماجدة كانت أكثر من موهبة...

رسمت يوسف عبد الجليل خلال محاضرة ألقاها بقاعة الحفلات بالمدرسة نفسها ثم أهدت لي اللوحة التي علّقتها قرب رأس سريري في غرفتي بتحماس خلال سنوات الدراسة، وما زلت أحتفظ بها بكثير من المودة والامتنان... لها.. ماجدة!

■

قامت علجية وغيّرت شريط الكاسيت لينبعث بعد لحظات صوت شارل أزنافور ويملأ الغرفة، فيما وقفت ماجدة وارتمت على الأرض بحركة بهلوانية وقالت:

ـ خلاص طلعت روحي... ربي يرحم.

وعلقت عليها علجية على الفور:

ـ بنبغ ارواح كالقط عمرك ما تموتي.

وبعد عدة دقائق من مناوشة خفيفة جلسنا وتحدثنا عن المعرض الذي أقامه طلبة المدرسة في السنة التي مضت بمركز محمد العيد آل خليفة، بعد أن حدثتني ماجدة عن الصعوبات التي تصادفهم كل سنة لإقامة معرض بما فيها المعرض الذي كانت تحضر له. قالت:

ـ لا أعرف لماذا يصرون على عرض لوحاتنا في هذا «الفراغ» السخيف؟

قلت لها:

ـ واش بيه محمد العيد؟ رايغ، غير شي les têtes اللّي فيه برك (ماذا به محمد العيد؟ رائع، لولا الرؤوس التي فيه).

فقالت علجية:

ـ بالضبط justement، ولهذا، العودة إلى الأصل فضيلة، كان «فراغ» والمفروض يخليوه «فراغ» نخيز، ويخليو الرّجل tranquille (مرتاحاً).

سألتها ماجدة:

ـ أي رجل تقصدين؟

تظاهرت علجية بالتعصيب:

ـ يا ناس... قلت لكم إنها غبية. عن أي رجل أتحدث في رأيك؟ عن جدك؟... عن محمد العيد آل خليفة طبعاً...

وببرود ردت ماجدة فيما انفجرت أنا ضاحكة:

ـ أستغرب كيف أن الأشياء التي تزعجني لا تزعج علجية تماماً. هي تحب أن يكون المركز الثقافي محمد العيد مثل المركز الثقافي الفرنسي في نظافته، وصرامة نظامه ومستوى رقيه، أنا لا أريد أكثر من أن يدخل قاعة العرض ناس يحترمون الفن؛ تصوري في السنة الماضية الذين دخلوا ليسخروا منا أكثر مليون مرة من الذين جاؤوا ليروا فننا.

قاطعتها علجية:

ـ آز... مليون... بزاف أضحكتني. (مليون... هذا مبالغ فيه يا صديقتي).

فيما واصلت ماجدة كلامها وكأنها لم تسمعها بالمرة:

ـ مثلاً أحدهم قال لي: «أنتم تاغ les beaux كي لا يقول Les Beaux Arts (الفنون الجميلة) وآخر قال لي: «اختي.. تبقاو غير تخزنشو، هذي خدمة يهدرُوا عليها

ناس غافلين»، يحتي كلما أقمنا معرضاً أصاب باكتئاب نفسي.

قلت:

ـ يجب أن تكون هناك بداية لكل شيء، وشيئاً فشيئاً حتى يتعوّد الناس.

ـ إنه الانحدار قالت ماجدة، كنا في الستينيات ذوّاقين للفن، في السبعينيات رجعنا «شويّة» للوراء، والثمانينيات صرنا بلا ذوق، وفي التسعينيات صرنا نقتل بعضنا بعضاً.

فقلت لها:

ـ والله لتُبكيني في عيدي. بقالنا الهزّة تسلّك ليتفتح الحديث على أدمعتنا التي حزمت الحقائب وهربت نحو الخارج، ويتحوّل حديثنا إلى بكاء لا جدوى منه فكأن ما يحدث في الجزائر مخطط له فعلاً لتفريغها من كل طاقاتها.

يوسف عبد الجليل قال ذلك ذات مرة:

«الجزائر من أغنى البلدان الأفريقية بجغرافيتها وثرواتها وطاقاتها الشبابية لذلك ستعمل القوى الغربية على تعطيل هذه الطاقات لفترة زمنية تكفي ليتخطى هؤلاء الشباب المرحلة التي ينتجون فيها ويبدعون، سيتصرّفون معنا بخبرتهم، بتجارب شيخوختهم ونحن سنفعل بحماسة

مراهقتنا، لن نحسن التصرف لأننا لم نبلغ سن النضج بعد، ولأننا نعيش في تلك الهوّة التي يلفّها الحياء والخجل والكبت والدكتاتورية الأبوية».

وأذكر أنه قال أيضاً في موضع ما من مقالاته:

«الإسلام تجاوز مرحلة رفع السلاح، وهؤلاء ليست غايتهم نشر الإسلام، غايتهم أن يأكلوا أحسن، ويشربوا أحسن ويتزوجوا، ويتحببوا، ويعيشوا حياة أقل بؤساً، مطالبهم الحقيقية نابعة من رغبات الذات لأن الإسلام اليوم بحاجة إلى خطاب علمي قوي لينتصر».

يومها قلت له: لماذا لا تكتب تجربتك في كتاب؟

فقال: تجربتي أمرّ من أن تكتب في كتاب، قد يكتبها أحد غيري ذات يوم، حتى لا أتهم بالمبالغة إذا فعلت ذلك بنفسي. لقد كنت كهؤلاء متحمساً لديني، وحين باغتني الحب، فقدت توازني، تزوجتها شرعاً، وقلت غداً ستعرف الفرق بيني وبين رجال مجتمعها الذين عاشرت، ستعرف إخلاصي وغيرتي عليها، واحترامي لها، ولجسدها، ستعرف أنني لا يمكنني أن أطأها إلّا إذا اغتسلتُ كما أغتسل للصلاة، أنا الذي هيأني ديني طاهراً بالختان لأتوغل في جنتها، ستعرف أن قبلتي لها تقوم على العبادة، وأنها عظيمة كلما زاد دلالها وهي بين يدي،

ستعرف أنّ المملكة لها كلها وأنا العبد لها، لماذا نحب امرأة واحدة... واحدة فقط، حين يصعب علينا امتلاك كل النساء.

لماذا تقف أمامنا في مواجهة الله، فتبدو كأنها أزاحت الشمس قليلاً عن مدار الطبيعة، فنصاب بالبرد حين يكون الصيف مجنوناً، ونصاب بالحر حين يكون الطقس شتاءً عاصفاً؟

أي سر من أسرار الله خصّها به؟

أي سر؟

لقد أحببتها دون سائر أميرات الكون، ونسيت من سبقها من النساء...

نسيت...

بيوت الحب لا يملأها إلّا الحب ولهذا هو تجربة تتكرر حين ترغب في ذلك. وبيوت القلب قد تتحول حسب انتقائنا لأصناف النساء إلى غرف ملكية أحياناً... وأحياناً إلى غرف عاهرات.

ها أنا أتذكر عائشة، تصحو قبلي، تغتسل، تقبل عليّ بزينتها وقد ارتشفت نقطة من ماء الورد على الريق، تنزل بجنانها على جبيني، تقبّلني وهي توقظني برفق، أشمّ الورد من فمها، من صدرها، من أصابعها...

تلقي التحية ورداً.

تغمرني برائحتها البرية، فأسأل حالي هل ما زلت في حيّي القديم في قسنطينة أم صرت في الجنة؟..

بين عائشة وإلزا صار القلب مزرعة لأعقاب السجائر، كانت تصحو بثوبها الداخلي الشفاف متأخرة، مثيرة وناعمة، بيضاء شهية مثل أشهى أجبانها الفرنسية، التزم السكون طويلاً قبل أن تتحرّك وتنير أضواء عينيها، تنير الغرفة قليلاً قبل أن تمدّ يدها إلى الجرس، وتطلب الخادمة، تأتيها بالقهوة إلى السرير.

تشعل سيجارتها الأولى، تمدّ لي قطعة من «الكرواسون» الساخن،

ها قد نسيتُ ما حدث بيننا البارحة.

ها قد نسيتُ أين تراقصت أيدينا، أين تفاعلنا تحت ماء الشهوة،

نسيت...

أين الورد؟

أين طهرك عائشة؟

ـ عذراً إلزا، لا أحب «الكرواسون» محسولاً على بقايا الحب، لقد تعلّمت أن أفصل بين غرائزي بحاجز من ماء.

أحب أن أزيل آثار تلك قبل تلك...

أحب أن أتذوّق كل واحدة على حدة، كل واحدة على ذات الطهر. آه عائشة... «فيشة»!

ما ألذّ قطعة الخبز من يديك بعد ليلة دافئة وحمام دافيء، ما أجملك متجدّدة!

ما أبهى ذكراك اليوم في لحظة ندم!

ما أبهاك!

قلت له:

ـ ما هذه سيد عبد الجليل، ومددت له الأوراق التي وجدتها على الأرض منكمشة، وسمحت لنفسي بقراءتها.

قال وقد انتبه إلى أنني كنت أقف خلفه:

ـ أوراق لا أهمية لها، إرميها.

قلت له:

ـ لكنه نص جميل.

أجاب:

ـ قد يكون جميلاً، لكن فات أوانه... من الصعب أن نكتب بمعزل عن أنفسنا... إرميها يا لويزا، إرميها.

قالها واستدار نحوي، ويبدو أنه وجد ما أراد، من رفوفه. رميتها، وبعد ساعات حين غادر قبلنا المكتب، هرولت نحو سلة المهملات بمكتبه، فرزت كل الأوراق التي فيها، فلم أجد تلك التي قرأت في غفلة منه.

وفي المساء تراءى لي أنني لم أجد أوراقاً قرأتها، قد يكون قال لي ذلك في لحظة ضعف.

أطفأت النور...

أغمضت عيني...

وبدأ الحديث بيننا...

كنت أنتظر الليل...

أنتظر موعدي معه لأواصل الحياة أكثر عشقاً. أستسلم لكثافة الحبر المندلق على الكون ليكتبني قصة أخرى... بالتفصيلات التي تمنّيتها:

سألته:

ـ ما الذي نكتبه في الأخير؟ أيعقل أن نكتب أنفسنا ونقول للآخرين ها نحن كمن يسبح على شاطىء مزدحم «كما خلقتني يا رب؟».

ـ نكتب ما يؤازرنا يا لويزا، ما يؤازرنا.

حمت حوله كفراشة لا تعرف على أي زهرة تحطّ، وفي الأخير قررت أن أجلس على الكرسي المقابل له... ظلّت بيننا منضدة صغيرة عليها آخر مقال لي «ثورة المراهقين».

قال:

ـ العنوان جميل.

قلت:

ـ والمحتوى ما به؟

قال:

ـ المراهقون أداة. . . والثورة مبرمجة، هناك أدمغة تختبىء خلف أصابع المراهقين. . . وهناك أخطاء الدولة. . .

قلت له، وقد تذكرت موضوعاً مختلفاً تماماً:

ـ ذكرتني. . . اليوم آخر حلقة من المسلسل الفرنسي «الطيور تختبىء لتموت» Les oiseaux se cachent pour mourir.

ألقى ببريق عينيه في عيني ثم ابتسم. . .

ابتسم. . . وابتسم. . .

حتى انفجرت ضاحكة. . . وقلت له:

ـ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

قال:

ـ تعجبني قدرتك على القفز على حبال الكلام، تنتقلين في الغالب من موضوع إلى آخر دون أن يشعر محدثك أحياناً أنك فعلت ذلك، هل تفعلين ذلك عن ملل؟

قلت:

ـ لا. . . عن قصد.

وضحكت مرة أخرى...

فقال:

ـ أنت عفريتة.

ضحكتُ أكثر.

نطّ هو الآخر إلى حيث أردت الحديث:

ـ قرأت القصة..

سألته:

ـ أحببتها؟

أجاب:

ـ أحببت العصفورة.

قلت:

ـ والخوري ألم تتعاطف معه؟ أنا أحببته أكثر؟

قال:

ـ أعرف... أعرف كم تحبينه، لكنني لم أتعاطف معه، شجّعته على الحب...

ولم نكمل الحديث...

دقّ الباب فجأة...

دقّ بعنف.

فتحت عيني، كان قد حلّ الصباح، نرجس تصلي،

والباب ما زال يدق، قمت وفتحت، كانت حنان تقف وعلامات المرض على وجهها.

ـ ما بك؟

ـ لا شيء.

قلت لها:

ـ كدت تكسرين الباب وتقولين لا شيء. وجهك كحبة الزعفران، دخلت، ألقت بنفسها على فراشي الدافىء، وتلحفت بالغطاء وراحت تقول بشيء ممزوج بالمزاح والخوف معاً.

ـ دثروني... دثروني... أعطوني كاس ماء... كاس حليب... n'importz quoi... (أي شيء) يا خوتي راخ نموت.

أمسكتها من كتفيها:

ـ ما بك، ما الذي حدث؟

قالت:

ـ الدّنيا مقلّبة... قتلوا مخلوف بوخزر تاع التلفزيون، وفكوا قنبلة بطريق سطيف، و«الفوبور» محاصر منذ البارحة والمعركة مستمرة فيه إلى الآن، وقيل، أحرقوا مدرسة في «الزيادية» و«الشّنجا» في كل مكان.

قلت لها وقد دبّ الخوف في كياني:

ـ كل هذا في ليلة واحدة.

قالت وهي ترتجف:

ـ خلاص وصلوا لقشنطينة... منذ شهر قتلوا حكيم تمكرشت، اليوم برخزر وما زال وما زال... يعني من اليوم فصاعداً لا تخرجي من البيت قبل أن تتوضأي وتصلي وتتشهدي... وتودعي بيتك... والأعمار بيد الله...

قلت لها:

ـ تمزحين حتى وأنت ترتجفين من الخوف؟

فقالت:

ـ حاشاك... من قال لك إنني خائفة... نعاي ربّي والنبي أنا أرتجف لأنني لم أنم طوال الليل، فقد كان صوت الرصاص قوياً من جهة، ومن جهة أمطرت كثيراً البارحة، لدرجة أن مياه المطر تسرّبت من السقف وأفسدت ليلتنا.

اختفت ابتسامتها فجأة وأردفت:

ـ عشرون سنة ووالدي يقدّم طلبات سكن... والآن أمامنا حل واحد من اثنين، إمّا أن نصبح إرهابيين أو نُقتل على أيديهم مثلاً حكيم «التهنّي المغبون» لو رأيت

«الميزيرية» التي عاش فيها لقلت خلّي يقتلوني على الأقل إيديرولي جنازة كالناس.

الغبن... كان مواساة الشعب الفقير، تلك هي الوصفة القائلة «وداوني بالتي كانت هي الدّاء».

قلت لزميلتي ليلى ذات يوم:

ـ انضمّي إلينا وكُلي لقمة ساخنة معنا.

ردت وهي منكبة على أوراقها:

ـ إني أتغذّى من حزني.

قال لها زميلنا نصير:

ـ بركاي من التفلسيف... الزاخد ما يقضّمتش عمْرُه كُلي... خير ما يقتلوك جيعانة.

فردّت عليه مازحة:

ـ أنت اللّي يقتلوك جيعان، على قد ما تاكُلْ على قد ما تبْقى جيعانْ، «المَزوِد الرقيق شحال يهز مْن دقيق».

فقال لها:

ـ أنا المهم يقتلوني برصاصة.

ومدّ يده تحت «الجاكيتة» وسحب مسدساً برؤوس أصابعه ونظر إلينا جميعاً وقال:

ـ إنه مرخّص... لكن يستحيل أن أطلق الرصاص على أي كائن كان، أنا أناضل ضد العنف يا جماعة، فكيف

لي أن أقتل. إني أحمله للاحتياط، إذا جاء أحدهم ليقتلني سأمنحه له ليطلق عليّ رصاصة واحدة وتريح!

تفاجأنا جميعاً، ليلى توقفت عن الكتابة، أنا توقفت عن الأكل، حنان وجدت التعليق المناسب...

- يعني (عموماً) (en général) الصحافي مثل الكلب الخرّاف، يجب أن يُدرَّب على إطلاق النار في الأعراس قبل أن يخرج للصيد. فقال لها نصير:

- نخليهم يذبحوني خير؟

إلى أي حدّ نحن مسالمون؟ إلى حدّ صار أسانا دواءً لكل فجائعنا...

نظرت إلى حنان التي ترتجف في فراشي وقلت لها:

- يُتعبني رأسي. إنه يعمل على صعيد آخر في كل وقت.

فقالت لي وهي تمسك الغطاء بشدّة:

- زَيْنِ يَعَيْشك قولي لراسك أن يحضر لي كأس حليب سْخُون وبعدها شغليه في الأشياء التي لا تخصني.

- كنت أحلم حلماً جميلاً (قلت لها) قبل أن تدقي الباب، وتقطعي عليّ أجمل لحظة في حياتي...

لم تعبأ بما قلت، نظرت إلى نرجس التي أتمّت إقامة صلاتها، وقالت لها:

ـ ربّي يقبل.

ودردشت معها قليلاً، فيما كنت أسخّن لها الحليب، وحين قدّمته لها فاجأتني بخبر صاعقة:

ـ خلّ جماعة، قيل لي أرسلوا تهديداً ليوسف عبد الجليل.. صحّ الويزا؟

ارتطمت ركبتاي بالأرض، تراءى لي غيابه قطيعاً، قد يحيلني إلى كومة رماد.

قلت لها وقد انقطع نفسي:

ـ لا أصدق... من قال لك ذلك؟

ـ من يقول لي في نظرك؟ (راديو الرصيف Radio trottoir كلام من هنا وهناك، وقد ظننت أن اليقين عندك، فتوفيق لم أره منذ عدة أيام، «قص ملح وذاب».

ـ وعلى كلٍّ أنت صرت أقرب مني إليه.

سكتت قليلاً ثم أردفت، وهي تقلّد إسماعيل ياسين في أدائه:

ـ علّمناكم الصلاة، سبقتونا إلى المساجد... ألست زوجة ابنه بعد عمر طويل...

ـ حنان لا تمزحي... لا توفيق ولا حتى والده أشارا ولو من بعيد إلى موضوع كهذا.

قالت:

ـ معناها ما كاينْ والُو... أنا سمعت الخبر منذ ثلاثة أيام لكنني سألت عنك أول يوم قبل لي تركت الصف باكراً للتحضير للأمسية القصصية التي نظمتموها في الجامعة، وثاني يوم لم أجدك لا في الجامعة ولا في الجريدة وقالت لي نرجس إنك بمكتبة الأرشيف الوطني صحْ؟

ولم تعطي فرصة لأجيب، هي أجابت عني وواصلت الحديث:

ـ صحْ طبعاً، والبارحة اختفيت بعد المحاضرات مباشرة، لمحتك من بعيد حين خرجت من المدرج، وبعد لحظة اختفيت في الزحام، ولا أحد عرف أين كنت مع ملاحظة أن سي توفيق أيضاً لم يكن له أثر بعد الظهر يعني كنتما معاً، عرفت من نصير أنه غادر الجريدة باكراً.

ـ شارلوك هولمز يا مْخايْلك. علّقت نرجس.

ـ شارلوك هولمز وتسألني أنا عن صحة الخبر، لقد أطلقوا الرصاص على شخص على بعد خطوتين مني في «راس القنطرة» ولم أرَ من أطلق عليه النار، وحتى صوت الرصاص لم أسمعه، هل تذكرين ذلك؟... ولعلمك البارحة كنت مع توفيق ووالده وكل شيء كان طبيعياً جداً في تصرفاتهما، لم ألاحظ أي شيء...

فقالت حنان:

ـ شاوية... الله قالَبْ عليكْ راسكْ مثني طُوبة طُوبة.

وقالت نرجس:

ـ لا والله... رأسها قاعة سينما يتواصل فيها العرض أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين.

تركت حنان في الغرفة لتنام، فيما خرجت ولم أعرف إلى أي اتجاه سأذهب.

إلى الجامعة؟ أو إلى دار الصحافة، أم إلى بيت يوسف عبد الجليل؟ أردت الاطمئنان عليه قبل أن أفعل أي شيء.

كان الوقت باكراً، ومن السخف أن أميل إلى الاحتمال الثالث؛ وقفت في ساحة «النخّاس» قليلاً حيث تتوقف الباصات، ثم خرجت، عسى أن أجد توفيق في الموقف المقابل للحي. لم يكن هناك، انتظرت فترة قصيرة وأخيراً قررت أن أذهب إلى الجامعة...

ركبت الباص المتّجه نحو الجامعة،

تحرك...

تحرك الشّعر في صدري حين انزلقت المدينة إلى الوراء...

هائج، تبعثر على تاريخ سيرتنا... عربد... سكِر...

صرخ... لم يعد بين أيدينا كثير من الحياة... أو متسع من العمر لتأجيل البوح حفاظاً على «الأصول»

مُدّ يديك
إعبث بأثوابي
وارم حدائقك الخريفية
في عمق أعدائي
واطبق «شفاهك الظمأى»
احجز لي أنفاسي
علمني سر الخلق
وسر الموت
وسر البعث
وقدرة الله
مُدّ يديك
فتش عن الحبّ الذي أخفيه في جلدي
فتش عن اسمك في لغتي
وعنك في عرقي
وفي عطري
وفي أقلام الرئتين والقلب
مُدّ يديك
قبلني

وامسك برأسي... بذاكرتي
حاول أن تبقيني واقفة...
فطعم يديك
فطعم «شفاهك» طعم اللذة عاصفة... ثائرة
أو...
أو بالأحرى ناسفةً... لا تبقيني قائمةً
مُذْ يديك
حاصرني
كي أسجن فيك
ألبسني خطاياك البدائية
وحاكمني
أصدر أحكامك بالمنفى
بالسجن أو بالإعدام
إني... وثيقتك
بالحب أو بالنكران
إني «كالفيزا»
في زمن «الفيزا» لبلد الجن
صعب جداً نكراني
وخطير جداً
أن تتوهم

أن الحب
لعبتك أو رغبتك
فالرغبة مني
والدعوة لك
ومنك السمعُ والطاعة
فمُدَّ يديك
فقد ألغيت مواعيدي
وحجزت العمر طاولةً
لأعيادك
وأعيادي
فمُدَّ يديك
إعبث...
إعبث...
إعبث... بأثوابي... بأهدابي... بأنفاسي...
مُدَّ... مُدَّ يديك..

دخلت أول قاعة فارغة، أغلقت الباب خلفي، وكتبت كل ما كان يتوارد على ذهني، ثم حملت الأوراق، وتوجّهت نحو قاعات التعليم المكثف للغات.

رحت أفتح أبواب القاعات قليلاً وأطل على من في الصف، كما يفعل أغلب الطلبة في الجامعة ليروا من في

الداخل لسبب فضولي محض تحوّل إلى خصلة يتوارثها الطلبة عن بعضهم بعضاً، جيلاً عن جيل.

كان يوسف عبد الجليل في القاعة 25.

يا للمصادفة مرة أخرى... الرقم 25

جلست على الحافة المقابلة للقاعات، وكان إلى جانبي طالب وطالبة يتحدثان عن موضوع يتعلق بفتاة، ولعلّي دون قصد انغمست في ذلك الحديث الذي كان يدور بينهما.

ـ دعها وشأنها (قالت الفتاة).

ـ إنه يحبها... وهذا فرصة لها، إنه شاب ممتاز (قال).

فقالت له:

ـ إنكم تضيعون وقتكم معها، يكفي المرأة أن تكره رجلاً واحداً فقط، لتكره كل الرجال.

ـ لكنه انتهى من حياتها.

ـ انتهى... لكن آثار الجرح لم تنته بعد.

وقاطعهما شاب مرّ بالقرب منهما، قال للذي يجلس:

ـ واشْ مُحمد تْعدّي عْليْ لَعْشيّة؟ (هل تمر عليّ هذا المساء).

ـ إيهْ إيهْ... كيما تْفاهمنا.

ـ هايْا أمْتعاشْ مَالا (نلتقي إذا عشنا).

ـ أمتعاش أكمال (إذا عشنا يا كمال).

وعاد إلى حديثه مرة أخرى مع الفتاة:

ـ شوفي سامية، أنا اللّي عليّ درْتو، صاحبي ماعندوش الوقت يلْعبْ، على بالكْ ناسْ ملاحْ، ولْدْ فاميليا (ابن عائلة)، يخْدم في السّوناكوم، وقادرْ يخطبها اليوم، ويتزوجها كتخلْصْ قرايْتها.

ـ اسمع محمد، «غطيزها» وقْتْ تنسى صدمتها، راهْو ابن عمها من طعنتها في الظهر، ولْدْ عمْها ماشي بْراني... (ليس غريباً).

إلى هنا كان كافياً جداً أن تتدفق صورة حبيب من عمق ذاكرتي لتعكر صفو يومي، وتحفر خندقاً أكبر حيث معدتي المحفورة بالقلق.

وقد تراءت لي تلك الخدعة التي التهمت براءتي، كالكابوس الذي يعترض طريقي أمام كل رجل...

الكابوس الذي يزيد ترددي تجاه توفيق... أو تجاه والده...

العقبة التي تجعلني أقف بين طريقين غير قادرة على حسم الأمور، وكأنني عن قصد أبحث عن رجل مستحيل لئلا أرتبط برجل.

فماذا لو فاجأني من أختار بذلك الشيء الشبيه بجبن ونذالة حبيب؟

ماذا لو انكسرت بلّورة أحلامي؟

بأي شيء سأضيء ليلي؟ وأملأ الخُجَر التي يحجزها غياب والدي؟ وحاجتي المتوحشة تلك إلى حنان رجل، ... إلى حماية رجل؟ أين أدفنها؟

كان يوسف عبد الجليل واقفاً أمامي، انتبه إلى وجودي أمام القاعة بعد خروجه من صفه، فيما سحبتني هواجسي إلى موضوع آخر...

نظرت إليه...

أحببت المبادرة منه... لكنني أحببتها بفائض من التأثر، والخوف عليه، أجهشت بالبكاء حين مدّ لي يده.

اقترب مني أكثر وعلامات القلق على وجهه وقال:

ـ ما بك؟ ماذا حصل؟

قلت ما استطعت أن أصوغه من كلام:

ـ هل فعلاً... هل تلقّيت... قالت لي حنان ذلك اليوم...

كنت خائفة حتى من نطق كلمة «تهديد».

تخيّل إليّ أنّ بوحي بها سيجعلها تتحقّق، مع أن صحيح

الطابة كان أكبر من أن تسمع أبعد من تلك المسافة التي تفصلني عنه. قال لي:

ـ تورضي وضيعذ تهذرو (قومي وفي ما بعد تتحدث) فقمت، ومدّ ذراعه، واحتضن كتفي، شدّ بأصابعه على أعلى ذراعي ومشينا نحو الخارج.

كان الضباب لم ينقشع بعد مع أن الساعة صارت العاشرة صباحاً، وكان الطقس بارداً كأنما يتنفس من قعر ثلاجة لكنني شعرت بدفئه وهو يرفقني قليلاً ويجعلني أستدير نحوه بحركة لم تفلتني تماماً من حضن ذراعه:

ـ هل تفضلين أن نشرب شيئاً ساخناً أو ننزل دار الصحافة؟

قلت له:

ـ أريد أن أطمئن عليك... فقط.

فقال:

ـ أنا أمامك.

وكأنما فهم ما أريد، قطعنا الساحة إلى موقف السيارات، واجهشت بالبكاء مرة أخرى، وأنا في السيارة معه.

قال لي بصوته الفخم ذاك:

ـ الأمر لا يتطلب كل هذا البكاء.

قلت له:

ـ هذا يعني أنك تلقّيت تهديداً فعلاً؟

قال بهدوء:

ـ من لم يتلقّ تهديداً بعد في هذا البلد؟ لماذا لم تبكي حين هُدّد كل الصحافيين في بيان صريح؟ ثم لست أنا الوحيد الذي تلقّى تهديداً، كل الشعب مهدّد إذا لاحظت ذلك، ما دام رجال الأمن وأهاليهم مهدّدين، وموظفي الدولة، والكتّاب، والصحافيين، وكل من يتعاطى السياسة و... و...

قاطعته:

ـ لكن التهديد الشخصي مختلف، إنه أكثر جدية، وهؤلاء الناس لا يمزحون...

قاطعني هو الآخر:

ـ لا شيء مختلفاً يا لويزا، مدير مدرسة الفنون الجميلة مهدّد منذ أربعة أشهر، وما زال يمارس حياته وعمله بشكل طبيعي، وكم من أستاذ جامعي هنا، أعرفهم جميعاً، تلقوا أكثر من تهديد...

وراح يسمّي لي فلاناً وفلاناً فقاطعته:

ـ والذين ماتوا... والذين هربوا... لا تحدّثني عن

الذين ينتظرون الموت. إن لك إمكانيات غيرهم، بإمكانك أن تغادر الجزائر وتعيش بسلام...

قال:

ـ الهروب لن يحل المشكلة...

قلت له:

ـ كأن البقاء يحلّها.

قال وهو ينظر إليّ تلك النظرة التي تقول أكثر من شيء:

ـ من قال لك ذلك، نحن نمرّ بمرحلة انتقالية، وأول شيء سنقوم به كصحافيين هو إعطاء قوة للصحافة، بعد أيام الانتخابات النقابية، سنغيّر وضع الصحافي في الجزائر، يجب أن نحميه ليصبح قوة فعّالة...، الصحافي الذي تمتصه جريدة وترميه من يُحصِّل حقوقه، الصحافي المأجور من يوقفه عند حدِّه، الصحافة الصفراء من يوقفها، والعناوين التي تخفي مؤسسات مشبوهة من يكشفها، الصحافي المتسوّل الفقير من يعطيه حقوقه وأشياء أخرى وكثيرة يجب أن نغيّرها بأيدينا، لا بأضعف الإيمان.

قلت له وأنا ما زلت أبكي هاربة بنظري من عينيه:

ـ أنت لا تعرف ماذا تمثّل لي، إنك الوحيد الذي

أعدت لي توازني... وبعض ما ضاع مني من ثقتي بنفسي...

وكان بودي أن أقول له المزيد، لكن الخجل هبّ في داخلي فاستسلمت لمزيد من البكاء.

لكنه فاجأني بحركة، أزاحت كل المسافة التي كانت بيننا، طوّقني ومرّر أصابعه على شعري، ثم جعلها تتغلغل على مهل بينه، تحسّست قبضته الدافئة وهي تسحبني نحوه، تلقي برأسي على صدره، تُمسكه بين كل حواسه ثم أنزل شفتيه قليلاً، سكبتا الكلام دافئاً على ملمس من شعري:

ـ لا تبكي يا غزالتي الصغيرة... لا تبكي... تعوّدي أن تعيشي جمال اللحظة، تعوّدي أن تعيشي أحياناً على انفراد، ففي كل الحالات، هناك احتمال قوي لأن أغادر الحياة قبلك...

هناك احتمالات أخرى لا نتوقعها ولكنها تحدث...

تمسّكت به...

ولم أكن أرغب في رفع رأسي عن أغنية قلبه المفعمة بالحياة، لكنه بدأت الرفق تناول بسبابته ذقني، وضغط قليلاً بإبهامه عليه وهو يرفع رأسي نحوه ويقول لي:

ـ أنت جميلة حين تبتسمين.

ومدّ يده الأخرى ومسح دموعي.

أذكر.. لم يستعمل منديلاً، مرّر أصابعه من تحت عيني وعلى وجنتي مرتين، مرة بوجه يده ومرة بقفاها.

ثم قال وهو يبتسم:

ـ يا لهذه المدينة البليدة، تعطيك أكثر من فرصة لتعاطي الشعر من أعففه إلى أعفنه ولا تعطيك فرصة لتجالس حبيبة.

أقال حبيبة؟

أنا غزالته الصغيرة؟

أقال ذلك؟ أم جاء كلامه مجازاً؟

لم أصدّق.. لكنني كنت متأكدة أنني سمعته، قال ذلك، قال حبيبة، ولم يكن معنا غير ماجدة الرومي في أغنية حب، قال حبيبة وخاطبني أنا، وقالت ماجدة أكثر من مرة:

بحبّك... بحبّك... بحبّك...

وقد خشيت أن أطلب منه أن يعيد ما قال، أن يؤكد لي أنني أنا حبيبته التي جاءته في موعد متأخر. خفت، فاحتميت بابتسامة خفيفة، وكأنه هو الآخر احتمى بها لئلا يستهلك طاقة حبه ذاك في أول لقاء صريح بيننا، فقال لي:

ـ ألا محاضرات لديك اليوم.

أجبته:

ـ عندي نحو وصرف، وبلاغة، وكلا المقياسين لا يتناسبان مع ميولاتي...

ضحك وقال:

ـ هذه علامة جيدة، سيكون لك مستقبل في الأدب، لكن عليك بقراءة القرآن، سيقويك معنوياً ولغوياً.

قلت له:

ـ لا أملك مصحفاً هنا والذي في البيت كبير.

فقال لي:

ـ عندي مصحف في البيت محفوظ في علبة جميلة، جلبته من مصر، من زمان، سأحضره لك في هذين اليومين، والآن، عندي مقابلة قصيرة في الراديو، سأصطحبك معي، هناك تتعرفين إلى محاوري، مراد بوكرزازة، إذاعي ممتاز، وقصاص (مثلك) تحضرين المقابلة بالاستديو، ثم نتناول ساندويشات بكافيتريا الإذاعة، وننزل معاً إلى دار الصحافة «كويّس كدة؟»

ضحكت وقلت له باللهجة نفسها:

ـ كويّس.

واصل الحديث وقد تحرّكت بنا السيارة:

ـ هل زرت القاهرة؟

ـ لا... لكني أحب أن أزورها... أحلم بزيارتها.

ـ إنها تشبه الحلم، جميلة... جميلة جداً خصوصاً في رمضان.

ـ المدن جميلة بأناسها.

ـ أوه... ناسها مهذّبون جداً، يغمرونك دائماً بأنك شخص مهمّ، يأعطائك صورة فخمة لك: يا بيه... يا باشا... يا هانم... أفندم... حضرتك... واخدة بالكْ حضرتك...

ضحكنا معاً... فيما اخترقت السيارة الضباب، وضغط هو على شريط الكاسيت، ليقطع إرسال إذاعة ميرتا، ويرتفع صوت «كيني روجرس»:

Lady

I am your knight in charming Armor

And I love you

You have made me what I am

And I am yours.

لي فقط كان يغني.

لي فقط... بصوته الذي لا يختلف كثيراً عن صوت يوسف عبد الجليل في فخامته...

وكنت قد نسيت، أو تناسيت... آثار حديث الليلة الماضية مع ترفيق.

لا شيء اليوم يهمّني غير آثار حضن يوسف.

■

ـ كان ممتازاً يومي يا نرجس.

ـ اللّهم أدمها نعمة (ردّت عليّ).

ننسى الموت حين نحب فقط...

ـ أنا عاشقة... أنا عاشقة يا حنان... أنا عاشقة.

وقفت في منتصف الغرفة ورحت أقلّد ماجدة الرومي في رقصتها المميزة، وأردّد ما تبقّى من أغنيتها تلك في ذاكرتي..

«بحبك... بحبك... بحبك».

فيما حنان ونرجس تتبادلان نظرات الدهشة، ثم فجأة ارتدت نرجس خمارها واستأذنت.

ـ لست مستعدة لسماع كلام في الحب، سأنزل لحضور شريط متلفز عن الجماعات المسلحة.

ورغم سعادتي، إلّا أنني تذكّرت جرحها، وتذكّرت أنه ما كان يجب أن أتصرّف بتلك الحماسة والاندفاع الزائدين للتعبير عن سعادتي خصوصاً أمامها، هي التي تركها الرجل الذي يُفترض أن يكون حبيباً بمجرد أن بلغه خبر

مقتل أخيها، تصرّف كأي رجل جبان وأنّني رغم مستواه العلمي العالي، وقف في صف المجتمع الذي لا وجه واضح لديه على الرغم من أنها لم تقف ذات يوم في صف أخيها، كانت ضدّه حين تعلّقت المسألة بالعنف:

ـ نرجس... يا إلهي كم أنا غبية؟

ـ لا تقولي شيئاً (قاطعتني) إنه شريط عن النساء اللواتي اختطفتهن الجماعات المسلحة، وقد انتظرته منذ أسبوع، فلا تفهميني... خطأ.

خرجت... تاركة في نفسي ذلك الفراغ الذي يمتلىء بسرعة بتأنيب الضمير...

نظرت إليّ حنان معاتبة:

ـ أكان يجب أن تفعلي بهذه الطريقة؟

جلست على حافة السرير، وبدأت بخلع ثيابي، وقلت لها:

ـ كنت سعيدة جداً... فلم أنتبه.

فقالت:

ـ تنفعلين دائماً بفائض من الحماسة، هذا سيؤذيك ذات يوم.

ـ أعرف، لكنني لم أعش شيئاً مماثلاً من قبل.

– سأل عنك توفيق مرتين اليوم، قبل محاضراته، وبعدها.

– بقيت طوال النهار بالغرفة؟

– نعم، نمت حتى الرابعة بعد الظهر، وقد اتصلت بوالدتي أستأذنها بالنوم هنا الليلة إذا لم يكن لديك مانع، جسمي كله يؤلمني، ولست مستعدة بقاء ليلة تعيسة مثل الليلة الفائتة.

– ولو يا حنان... إنك أختي، هكذا تثرثر أكثر، أريد أن أتكلّم عنه، أن أصفه، ألّا أتوقف عن الحديث عن تصرفاته، وروعته، و... هل تريدين اقتراحاً آخر، سأترك لك مفاتيح الغرفة والخزانة خلال عطلة نهاية الأسبوع، هكذا حين أصل يوم السبت صباحاً أبدأ مباشرة بالتعبير عن شوقي إليه...

– أواه l'affaire (الحكاية) كَبُرت.

– ظلّي معي بقية السنة، نرجس لن تنزعج، بالعكس إنها تحبك كثيراً.

ضحكت وهي تسألني مرة أخرى:

– هذا موضوع آخر، لم تجيبيني ألم تري توفيق؟

– لم أره اليوم.

فتحت عينيها الجميلتين وراحت تنظر إليّ، تتفحص مدى صدقية جوابي.

وقالت لي والدهشة منبثقة من كل ملامحها:

ـ مع من كنت إذاً؟... وعاشقة... عاشقة... مع من يا خائنة..

قلت لها:

ـ لم أعده بشيء منذ تعرفت إليه، كل ما بيننا مجرّد صداقة؟

ـ صداقة؟ يا لُئيمة! أي صداقة هذه؟ الرجل متيّم بك، وينوي الزواج بك حالما تنهين دراستك، وأنت تقولين ص... دا... قة!!

ـ هو من يخطط، صدّقيني لم أعده بشيء، إنه يعرف ذلك.

ـ أي رأي يا بنتي كلنا نعرف أن ما بينكما هو حب، ثم لم تشيري ولو مرة إلى عكس ذلك.

ـ بكل بساطة لأنه لا أحد سألني عن رأيي.

ـ... يا تُخلاي.

سكتت قليلاً ثم أردفت:

ـ لويزا... مع من كنت، من هذا الذي يستحق منك هذا الجنون، وهذه الطعنة لتوفيق؟

رحت أتأمل فضولها وغضبها للحظات وأنا أرتدي قميص نومي ثم قلت لها:

ـ حسب ما سمعته منك الآن إذا أخبرتك ستغضبين أكثر.

ـ مع من؟ لا تقولي مع ابن عمك النذل.

قلت لها:

ـ لا... كنت مع يوسف.

ـ وشكون يوسف هذا اللي طلعت بيه جديد.

ـ يوسف.. (قلت لها) يوسف كم يوسف تعرف...

تغيّر لون وجهها، وجحظت عيناها، وفتحت فاها، وكأنها رأت مصيبة، وأشارت بأصابعها فقط ثم راحت تردد بصوت منخفض وأنا أنظر إليها صامتة:

ـ يوسف.. يوسف الذي أعرف.. الذي تعرفه أنا وأنت. سكتت للحظات، وأنا أترقب العاصفة التي ستهب من فمها بعد ذلك الهدوء.

وفجأة صرخت:

ـ يوسف عبد الجليل؟

ـ هو بالذات.

فقالت بصوت منخفض هذه المرة:

ـ حتماً يشفق عليك.. فلا تذهبي معه إلى أبعد من

هذا... إنه يعصر والدك... ثم هو يا لويزا رجل مختلف وحاد تجاه من يفهمه خطأ. لقد صفع مندوبة إعلانات ذات مرة أمام الملا لأنها حاولت إغراءه، وقد كانت ملكة جمال، ماذا لو عرف مشاعرك... ماذا لو...

قاطعتها وقد انهمرت دموعي مرة أخرى:

ـ هل تظنين أن الحب يحق فقط لملكات الجمال؟ أنا لا أفهمك أحياناً. لقد أخذني بحضنه، ضمّني برفق، وشعرت بدفء أصابعه وهي تلامس جلدة رأسي، ضمّني، احتواني كما أنا واحتويته كما هو...

اعترفت له بكل شيء، دون أن أقول أي شيء، وفعل الشيء نفسه. قد أكون تسرّعت، لكنني كنت خائفة من القدر فيظل الحب عالقاً بحلقي حتى أموت، هو لا أدري إن كان قد تسرّع. لقد عرف كل شيء... ولم يصفعني، لأني لم أحاول إغراءه، لقد بادلته الحب... وقبل لحظات فقط قال لي وهو يوصلني إلى باب الحي:

ـ أحياناً لا نستقرّ على حب، لقد اختلفت دروبنا لأن الحب الذي نريد سرقه زمن آخر منا ومكان آخر لم نهتد إليه في الوقت المناسب.

كانت حنان تبدو كتمثال من شمع تحت تأثير صدمة ما

سمعت، وحين سكتت أرجحنا الصمت بين أكثر من فكرة وفي الأخير...

قالت لي بنبرة الدهشة نفسها:

ـ يوسف عبد الجليل، الذي نرتجف من نظرته...

وأنت؟ كان يساورني الشك أحياناً، ولكنني كنت أكذب نفسي، هيبته كانت أكبر من أن أتخيله في موقف حب.

قلت لها بانفعال:

ـ الحب واحد دائماً...

«إديت بياف» أحبت رجلاً في عمر ابنها، وحين عاتبها الناس غنت: خلوا عيني شوفوا بيها: خلوا قلبي اسألوه. الكاتبة مارغريت دوراس، الشيء نفسه عاشت أجمل قصة حب مع رجل تكبره لدرجة لا يمكن أن يتقبلها عقل، لكن هؤلاء يعيشون في مجتمع يعرف قيمة الحب.

وفوجئت بصوت نرجس من الخلف:

ـ ولماذا هم، نبينا محمد (ص) أحب مرتين، مرة خديجة وكانت أكبر منه، ومرة عائشة وكانت في عمر ابنته، فأين المشكلة؟

شعرت ببعض الخجل منها، فأردت تغيير الموضوع:

ـ ماذا حدث؟ ألغي برنامجك التلفزيوني؟

أجابت:

ـ لا، اندلعت الحرب في القاعة بين مناصرات «الفيس» ومناصرات «حماس» ثم امتدت لتشمل الشيوعيات، ولأني لست ممن قال عنهم المثل «الراعي والخمّاس يتقابضوا على شي الناس» انسحبت.

سكتت قليلاً ثم أردفت وهي تبتسم تلك الابتسامة التي تخفي معنى:

ـ ويمكنني أن أنسحب من هنا أيضاً حتى تكملا الحديث وغمزت حنان في الأخير.

قلت لها وأنا أرتمي على سريري:

ـ لا . . . الأمر ليس سرّاً، فقد تكونين في صفي لأنّ فضيلة الشيخ حنان لها فتوى لمصادرة عواطفي . . .

هبّت حنان واقفة وقالت:

ـ إنها تحب رجلاً في عمر والدها فيما من المفروض أن تحب ابنه الذي يحبها بصدق. قولي بصراحة يا نرجس، هل تظنين أنّ لهذا الحب نهاية منطقية؟

قالت نرجس:

ـ أجمل ما في الحب أنه يخالف المنطق في أكثر من شيء، ولهذا عاش حب قيس وليلى، وروميو وجولييت، وأحب الناس على غير العادة فيلم «Love Story»، و«ليلة بيضاء في سياتل» . . . أرأ حنان الحب لا يقاس بعمر

الأشخاص، الحب له عمره، إنه طفل يجب أن يرعاه اثنان دائماً...

قالت حنان بعصبية مفتعلة:

ـ ما لا أفهمه، وما لا أتخيله...

فقاطعتها نرجس:

ـ يوسف عبد الجليل؟ أليس كذلك؟

فقالت حنان:

ـ أنا أفكر في توفيق... ستكون صدمة بالنسبة له إذا عرف، إنه شفّاف، رومانسي، وحسّاس، ما معنى أن يبقى متعلقاً بها وهي تعامله بغموض كرجل احتياط؟ استمر حديثنا لأكثر من ساعتين، لم نصل فيها إلى حل، وحين صارت الساعة الثامنة والنصف قلت لحنان:

ـ سيبدأ رأفت الهجّان بعد دقائق، من يريد مرافقتي لمشاهدة الحلقة عند سعاد ونوال؟

فسألتني حنان مازحة:

ـ ما يقْدرْش رأفت الهجّان يجي هو؟ والله ماني قادرة نتحرّك.

فرديت عليها بالمثل:

ـ تقْرَلْو وتشوفْ... واشْ نرجس تروحي؟

فقالت:

ـ تعرفينني لا أحب أجواء غرفتهما، ثم هل من الضروري أن تشاهديه كل يوم، أظنك شاهدته كاملاً في السنة الماضية؟

فقالت حنان ضاحكة:

ـ دعيها تذهب، سيغضب يوسف شعبان إذا تأخرت عن الموعد... من يوسف إلى يوسف حتى لا يتغيّر عليها الموضوع...

أخذت مفاتيحي من على المنضدة ونظرت إليها وأنا أصطنع الضحك:

ـ ها... ها... ها... بايخين في زُوج كيما راكم (قلت لهما قبل أن أخرج).

عند نزول كان في الغرفة أكثر من عشر صبايا أخذت مكاناً إلى جانب سعاد على سريرها، وبدأنا ندردش في انتظار المسلسل، وحين أطلّت المليحة وبدأت تحكي بعض التفصيلات التي ستحدث خلال الحلقة قالت إحدى الصبايا:

ـ واحد مايعرف l'adresse (عنوان) تاعْها هذه المخلوقة (وكانت تقصد المليحة).

فردت أخرى:

عْلاَه؟ (لماذا؟).

فقالت الأولى:

ـ نْبَعثْرلها واحد يقفل لها فمها.

ودوت ضحكاتهن جميعاً.

وحين بدأ الجينيريك بدأت تعليقات الصبايا:

ـ ها هو الزّين تاعي (وكانت تقصد محمود عبد العزيز).

ردّت أخرى:

ـ ماسْمّي أول طفل أنجبه محمود.

وقالت لها أخرى:

ـ دّيري باباه الشّايَخ (جدي أباه أولاً).

وضحكن مرة أخرى، فيما قالت إحداهن بعد أن خفت الضحك:

ـ أنا بْلا باباه نجيبْ طفْلْ ونسميه يوسف.

فخاطبتها سعاد وهي تغمزني:

ـ خرقْتْ le feu rouge (الضوء الأحمر) يوسف للوريزا، دارت عليه monopole (احتكار).

وضحكن مرة أخرى، ثم بمجرد أن بدأت الحلقة رحن يصفقن ويهتفن... ثم خيّم الصمت، في السنة الماضية، عُرض المسلسل خلال شهر رمضان، وكانت الشوارع تخلو من الناس ساعة عرضه، كنا نقول هذا بطل عربي

في زمن لم يعد فيه أبطال. وبسببه صرنا قوميين أكثر. . .

قالت لي سعاد بصوت منخفض:

ـ خرامْ نلقاوْ واحدْ كيما هذا في الجزائر؟

قلت لها مازحة:

ـ كَرِمْونْدي واحدْ (أي اطلبي واحد).

فقالت:

ـ تحسبي ما عندناش. . . كاينْ مائة وألف لكن المصريين فنانين، ويعرفون أن يقولوا «ها نحن ذا» أمّا نحن الجزائريين فعندنا مشكلة تعبير، نحب أن يُكتب عنّا، وتُنتج لنا أفلام، ونُحيُوا التحْلال. . .

قلت لها مترسلة:

ـ سعاد أجّلي الحديث حتى نهاية الحلقة. . . ربي يعيشك.

فسكتت بضع دقائق ثم قالت لي:

ـ إني متعبة.

سألتها:

ـ ما بك؟

فقالت:

ـ تركت عبد الوهاب.

انتفضت وقلت لها:

ـ تركته؟... كنتما مثل السمن على العسل حتى نهار أمس.

قالت:

ـ لقد خيّرته بين شيئين، إمّا أنا وإمّا السجائر...

ضحكتُ بصوت مرتفع، ثم انتبهت إلى نفسي فخفضت صوتي مرة أخرى:

ـ هل هناك امرأة عاقلة تخيّر رجلاً بينها وبين السيجارة... كنت تعرفين أنه مدخّن منذ البداية.

قالت:

ـ كان يعدني في كل مرة أنه سيتوقف عن التدخين ولم يفعل.

قلت لها:

ـ ثلاثة لا يقلع عنها الرجال السيجارة والخمر والنساء... ما تعيّش رُوحَكْ (لا تتعبي نفسك).

قالت:

ـ هناك مشكلة أخرى، إنه لا يستعمل فرشاة الأسنان، وهذه في حدّ ذاتها صدمة بالنسبة إليّ، كيف أقبّله ذات يوم، أفضل الموت على تقبيله...

قاطعتها فجأة:

ـ شت... هذه اللقطة أحبها كثيراً.

«مصر محتجالك يا رأفت» قال محسن ممتاز لرأفت، مصر محتجالك.

عبّت مصر كلها في عينيه القديرتين، في نظرته المحمّلة بأمل شعب وأمة، في صورة المحمّل بهتافات المكسورين.

ـ يا ويلي... (قلت لسعاد) هذا الرجل غير عادي... ماخلّاش.

هزّتني سعاد وقالت:

ـ اسمعيني أنا... ماذا أفعل؟

فقلت لها:

ـ اهديه فرشاة أسنان في عيد ميلاده.

فقالت ساخرة:

ـ بالله عليك، هل هناك رجل جزائري يقبل هذه الإهانة؟

فقلت لها:

ـ وماذا أفعل لك؟ للأسف أنا لا أعاني هذه المشكلة.

فقالت:

ـ أعرف... أنت، جاءك توفيق من السماء ولَدْ رُومية (c'est normal).

التهمني الصمت دفعة واحدة...

فحتى سعاد دون قصد منها أعادتني إلى مدارات توفيق، تكرت الضمير... وأبصرتُ نفسي مراوغة حقيرة تهرّبت من الاعتراف بذلك التردّد تجاهه، وأظن أن عواطفي لم تكن قد استوت بعد، كانت فجة، إذ لم أكن أرى فيه غير الرجل الذي يلزمني حبه لا أكثر... فلم تكن لديّ طاقةٌ في الحب...

كان يغريني برجولته الهادئة لا كأنثى تشتهيه، بل كأنثى تتمنّى تقمصه، وأظنني طوال تلك اللقاءات التي جمعتنا كنت أجالسه لارتشاف أسئلته، ذكائه، نظافته، أناقته البسيطة، كنت في كل مرة ألتقيه أزداد إعجاباً به.

كنا نسير على خطين لا يلتقيان

إذ كان يزيد حباً بي كل يوم

- chaque matin je t'aime un peu plus fort

قال لي ذات يوم جميل أذكره جيداً،

فقلت له مراوغة لأهرب مما يعنيه:

- ميراي ماثيو.

فقال:

- dix sur dix.

فقلت لأهرب أكثر:

- On se plait quand on est jeune

on s'aime quand on est vieux

(نعجب ببعضنا بعضاً ونحن شباب، نحب حين نكبر).

فقال:

ـ على علمي لا تحبين ألبير كامو.

فقلت:

ـ أحب بعض ما قال عن الحب والمشاعر.

فقال:

ـ أمّا أنا فلا أحبه بتاتاً في هذا الجانب، إنه يكتب من منطقه الغربي: الرجل في الغرب تعجبه كل النساء، ويتعاطاهن حسب قدرته في الوصول إليهن، هذا يسمّى إعجاباً، وحين تحلّ عليه الشيخوخة يحب أول امرأة تتعاطف مع شعراته البيض، هذا يسمّى حباً عندهم.

قلت له:

ـ تجد دائماً مجالاً لتجري مقارناتك بين الشرق والغرب، ألا تتعب من ذلك؟

قال:

ـ وأنت تجدين دائماً مجالاً لفتح باب الحديث بيننا على مساحة فارغة، لِمَ لا تقولي لي إنك لا تحبينني دون البحث في كتب الأدب عن تلك العبارات التي لا أؤمن بها... ألا تتعبين؟

قلت له وأنا أتصنّع الغضب:

ـ توفيق... لا تقل ذلك مرة أخرى، أنت تعرف كم أعزك لكنك تستعجل الأمور بطريقة لا تستوعبها عواطفي...

كنت خائفة جداً من خسرانه... ولهذا تواريت خلف أكثر الكلمات تمويهاً، تلك التي قد تعني أكثر من معنى في الوقت ذاته، ولكنها في الغالب لا تعني الحب كما هو في شيء...

تعني أحبك قليلاً فلا تطلب مني المزيد.

تعني أيضاً إبق على حبي، أحتاج إليك في مآرب أخرى...

كنت أحتاج إليه للتوغل إلى خبايا يوسف... وللوصول إليه كنت أحتاجه جداً..

لكن الذي لم أحسب له حساباً، هو تجاوب يوسف معي...

ـ أنا تفاجأت بتجاوبه معي، صدّقيني حنان.

كانت حنان بانتظاري، إذ لم تنم بعد،

دسست بنفسي إلى جانبها بالفراش وعدنا إلى الموضوع ذاته.

قالت لي:

ـ يبدو أنّ ترجس لها الحق، الرجل تستيقظ عواطفه تجاه المرأة التي يريد ولو في ساعة متأخرة من العمر.

ـ يحدث ذلك مع أي إنسان، رجلاً كان أم امرأة (قلت لها):

ـ والحل؟

ـ لا أدري.

ـ ستلتقيان غداً؟

ـ لا أدري.

ـ لا تدرين! وعلى ماذا اتفقتما؟

ـ تساليني كأن ما حدث بيننا بلغ حدود الوعود و...

و... نحن قلنا «بسم الله» لا أكثر، لم نتفق على شيء وكنت كمن وقع تحت تأثير مخدّر.

فقالت لي بأسلوبها الساخر:

ـ أحسنت... نامي إذاً، ربّك هو الحلّال.

واستسلمت كعادتي لحلم جميل قبل أن يستولي النوم على مخيلتي فتنطفيء، لكنني فكرت في مارغريت دوراس التي أحبها شاب في الثامنة والعشرين من عمره...

لنقل هي أحبته لشبابه، ... هو؟ لأي شيء أحبها...

لم تكن تلك المرأة الفائقة الجمال وهي في عقدها السابع من العمر، لم تشدّ وجهها، كانت مسرحاً غاضاً

بالتجاعيد، جسمها صغير، وثيابها «عجائزية» حدّ الألم، مع حذاء بدون كعب تماماً لا يقول أكثر من أن هذه المرأة امرأة عملية، بعيدة كل البعد عن العشق... كيف كتبت L'Amant (العشيق)، بتلك النعومة، وفيما بعد، كيف عاشت تفصيلات روايتها تلك في عمر متأخر، كيف فاجأتها أوراقها، وأحلامها بقصة حب ظلّت على كراسي الاحتياط عمراً!!!

يوسف، في الأخير، تماشيت مع مزاجه، لأنني ربما، روايته التي لم يكتبها بعد، وتلك الخطوط التي كان يبحث عنها لتركيب امرأة لم تلزتها الحياة بعد...

وتماشى مع مزاجي... لأنه ذلك الحلم المكتمل الرجولة الذي نما مع تفصيلات جسدي، تكوّر مع الكرزتين، تمدّد مع الرغبة، وجد حسب طلب الغريزة رجلاً له طاقة احتواء ربيعية وانتهت مراسم البرد عنده منذ زمن بعيد...

في اليوم التالي...

لم يكن حلمي على ما يرام... كانت قسنطينة رمادية، ووجع بنصف رأسي.

ـ غريب مع أنني نمت جيداً... (قلت لحنان) فقالت لي:

ـ الطقس بارد... هذه لفحة هواء، لم لا تبقين في الغرفة، بعض الدفء سيزيل الوجع، أنا سأمرّ لأرى أمي في البيت، ثم أذهب إلى الجامعة...

ـ لا أريد أن أبقى في الغرفة، سأذهب إلى «ديلو» أعيد الكتاب الذي استعرته منذ أسبوع، وأحضر كتاباً جديداً، نلتقي في الجامعة ما رأيك؟

زمّت حنان شفتيها ثم قالت:

ـ لماذا «ديلو» قد تلتقين بتوفيق على الطريق، ارحميه قليلاً..

ـ لن ألتقيه لكنني لن أهرب منه.

وفيما كنت فعلاً أفكر بالالتقاء به وأنا أتوجّه نزولاً نحو «سان جان» حدث ما لم أتوقّعه، التقيت ابن خالتي جمال الدين مع حبيب، سلّمت على جمال الدين ولم أقوَ على إلقاء التحية على حبيب، بل اعتبرت يومي منحوساً بمجرد رؤيته.

ـ ما الذي أحضرك إلى قسنطينة (قلت لجمال الدين) الحنين إلى الماضي؟

ـ جئت لأطمئن إليك؟

ـ إليّ أنا؟ واشْ مَنْ حْمارْ مَاتْ؟

ـ جئت لإنهاء مشكلتي مع الخدمة الوطنية، وسأزور الأصدقاء.

كان حبيب قد ابتعد قليلاً منا حين لاحظ تجاهلي له، وقد تنبّه جمال الدين لذلك فقال لي:

ـ كنتما صديقين من ثلاث سنوات ما الذي حدث بينكما؟

ـ ياه.. مرّت ثلاث سنوات... تصوّر؟

ـ جواب مقنع!

ـ ومشكلتك مع الخدمة الوطنية وجدت لها حلاً؟

ـ تقريباً.

ـ ستدفع رشوة إذن؟

ـ الرشوة تصل عند عائلتنا وتخشن بل تصبح غير صالحة للاستعمال. . .

ـ معناها لا حل؟

ـ لا . . هناك حل، خالي يعرف شخصاً، سأقابله في مكتبه بعد قليل في المنصورة، وسيرسلني إلى المناطق الصحراوية حيث لا مشكلات.

ـ أخيراً اقتنعت بأداء الواجب الوطني. . .

ـ ليس واجباً أن يُوقَف مثقف على حاجز على الطريق مثل «السّيبْلَة» (هدف رماية) أو يدفع به نحو حرب لا يريدها لكنني مجبور، وبعد انتهاء الثمانية عشر شهراً بالضبط على خير، سأغادر الجزائر، أيام عمري تضيع هباءً هنا (قالها بأسى بالغ).

ـ كنت أظن أن الشاوي لا يعرف لك طريقاً يا جمال.

(ابتسم وقال بألم):

ـ الكل يظن ذلك، في نظر الجميع المثقف المحال على التقاعد منذ اللحظة التي يحصل فيها على شهادته الجامعية شيء طبيعي. . . أين تمضين الـ week end؟

ـ في البيت. . .

ـ أراك هناك.

ـ تراني أنا أم ترى فوزية؟

ضحك ومضى... وترك ألمه على ألمي يتراكم بشكل مجنون.

بلغت «ديلو» وشعور بالغثيان ينتابني.

ـ ما هذا اليوم السيء؟

ضغطت على جرس الباب، فتحت السيدة «ديلو» التي تعوّدت كل المشتركين في مكتبة زوجها، وبداهتها الفائقة قالت لي:

– Qu'est-ce qu'elle a la petite Louisa aujourd'hui tu as le visage pâle?

(ما بها لويزة الصغيرة اليوم؟ وجهك مصفر).

أجبتها:

– Je ne suis pas dans mon assiette.

(المقصود بالعبارة: لست على ما يرام).

فقالت لي:

– tu prends une tasse de tisane?

(هل تشربين فنجان زهورات؟ معي).

قلت لها: (شكراً، أنا مستعجلة).

– non merci, je suis pressée.

فقال صوت من ورائي:

– Tous les Algeriens sont pressés madame Dilou, vous pouvez imaginer le reste.

(كل الجزائريين مستعجلين سيدة ديلو، لك أن تتخيلي الباقي).

كان صوت توفيق، استدرت نحوه وقلت له:

ـ تقفيت آثاري؟

ـ أنت تقفيت آثاري (قال)، كنت هنا قبلك؟

مددت له الكتاب وأنا أشدّ على رأسي بإحدى يدي.

ـ إعط الكتاب للسيدة ديلو رجاء، واختر لي أي كتاب على ذوقك، لكن شرط أن يناسب مستواي.

وضع الكتاب على المكتب أمام السيدة «ديلو» ثم اتجه نحو الرفوف وكلها دقيقة زمن ليعود بكتاب من القطع الصغير La neige en deuil لـ: Henri Troyat قلت له بصوت مرتفع نوعاً ما:

ـ الثلج في حداد، لا لن آخذ هذا الكتاب، أنا مثل ابن الرومي أتشاءم من بعض الإشارات.

قال:

ـ إنها قصة جميلة وأسلوبها سهل يتناسب مع قدراتك.

قلت له:

ـ لا يهمني، لن آخذها.

قال:

ـ ما رأيك في La dernière impression (الانطباع الأخير) لـ: مالك حداد.

فقلت له:

ـ رأسي يؤلمني يا توفيق... فلا تثر أعصابي بهذه العناوين.

ابتسم وقال لي بهدوئه الجميل:

ـ أنصحك ألا تقرئي شيئاً هذا الأسبوع، أليس هذا أفضل؟

قلت له:

ـ ربما يكون هذا أفضل.

قال:

ـ أهكذا ابن الرومي مثلك أيضاً، يعدل عن قراءة كتاب حين يتشاءم من عنوانه؟

فقلت له:

ـ سأحكي لك قصة، خرج ابن الرومي ذات يوم للسفر، وعلى الطريق وجد مقصاً مفتوحاً، فتشاءم، وفكر بالعودة من حيث أتى لكنه واصل سيره، فوجد حبات تمر، فعدل عن سفره تماماً لأن المقص المفتوح والتمر شيئان يعنيان «لا تمرّ» فلم يمر، عاد أدراجه.

خرجنا من عند «ديلو» على أساس أنني متوجهة إلى

الجامعة وهو متوجه إلى مقهى بيروت حيث له موعد مع أحد الأصدقاء، لكنه استوقفني عند صيدلية وطلب أقراصاً وقدمها لي، وقال:

ـ هذه لوجع رأسك.

أظنني يومها تأثرت كثيراً بما فعل....، نظرت إليه طويلاً ووجدتني غير قادرة على شكره بكلمة.

قلت له:

ـ توفيق..

ـ عيون توفيق.

ـ ستقتلني ذات يوم بطيبة قلبك.

ـ سأقتلك إذا أحببت غيري.

يختلف الغزل الجزائري عن سائر الغزل في العالم، فيه دائماً لمسة عنف،

«[illegible]» (مرقعة) كما تقول حنان.

لكن غزل توفيق يفوق كل تصوراتي أحياناً، يفاجئني من حيث لا أتوقع كلاماً في الحب.

قال لي مرة: «داروين» لم يعرف الحب، ولهذا أخطأ في نظريته.

قلت له: إنها خاطئة لأسباب أخرى.

قال: كلها خاطئة؟

قلت: ماذا تقصد؟

قال: نصف نظريته خاطىء، والنصف الآخر صحيح.

قلت وقد بدأ فضولي يتحرك من أماكنه:

ـ آه... نصفها صحيح... هات ما عندك.

ـ وجدت آية في القرآن تقول: ﴿واللّٰه خلق كلّ دابّة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق اللّٰه ما يشاء إن اللّٰه على كل شيء قدير﴾.

ـ لمَ لا تعد إلى التفاسير الموجودة، بدل إعطاء تفسير خاطىء للآية...

ـ نحن بحاجة إلى تفسير علمي معاصر للقرآن. من أذكى نحن أم الإنسان القديم؟

ـ أي قديم؟ نحن أبناء حقبة زمنية واحدة.

ـ وما الحقبة؟

ـ لا تمزح.

ـ هل تظنين أن داروين كان يمزح.

ـ أنت ما رأيك؟

ـ لو أن الإنسان أصله قرد فلماذا لم تنقرض كل القرود، لماذا لم تخضع للتطور نفسه، ولماذا لم يتطوّر الإنسان إلى كائن آخر؟ داروين لم يجب عن هذه الأسئلة،

القرآن أجاب كيف أوجد الله الحيوانات، وكيف تنوّعت حسب ظروف الحياة، وحدّد أيضاً كيف خلق الإنسان.

ـ أنت ترصلني إلى الهاوية.

ـ اقفزي ستجدين قلبي في انتظارك تحت.

ولم أقفز قط إلى قلبه كما يجب...

مرّ يومي بأسرع مما توقّعت، والتقيت حنان في الثانية بعد الزوال، دخلنا مطعم الجامعة لتناول الغداء، ففوجئنا باحتجاج طلابي على وجبة الغداء، كان الطلبة يدقّون بالملاعق والشوك على صواني الأكل، وتلك كانت طريقة الاحتجاج التي توارثها الطلاب من بعضهم بعضاً، جيلاً من جيل. سألت حنان أحد الطلبة:

ـ تحويا واش كاين؟

ـ ما كان والو أختي (لا شيء)... الدجاج بالريش، المقرونة بالسوس، السلاطة بالبُوجغلُلو (بالحلزون) والقاطر من عام جدي...

خرجنا نضحك وحنان تقول:

ـ حتا نافقتلنا، أيعقل أن نترك الأكل الطيب في «نحاس» ونأتي إلى المطعم الجامعي.

قلت لها:

ـ تأخرنا، مطعم «نحاس» يكون قد أغلق أبوابه ما انهيت جماتي حتى عرفنا أين نتناول شيئاً طيباً.

قلت:

ـ بيتزا البيراميد.

وقالت بحماسة:

ـ yes نعم.

تلك البيتزا الساخنة التي عليها خرز، مع عصير الليمون، شيء لا يمكنه أن يتسرّب من ثقوب الذاكرة، شيء لا يمكنه أن يُنسى خصوصاً إذا كان مصحوباً بتعليقات حنان.

ـ من ينجح في انتخاباتنا النقابية حسب رأيك؟ (سألتها).

ـ واش قالُولك عليّ من الوِلْيَة (أجابت ساخرة).

ـ جدّك والي non؟

ـ جدّي... الله يَرْحَمُه، بَصَحْ حسب تحليلاتي السياسية للواقع المُعاش كي تُولّي الأمور للزعامات، الشرق هو اللّي يديها، بالتالي ذاك (جدّك) يوسف هو اللّي يديها (سيأخذها) فَرِحت؟

ضحكتُ عالياً، وقلت:

ـ يا رب.

فعلّقت بسخريتها المعهودة على جنوني ذاك:

ـ واقيل البيتزا تاع اليوم فيها العرعار ياه.

بعد يوم آخر حملت الجرائد عنواناً كبيراً:

ـ النقيب. . .

وفردت جزءاً لأهم محطات حياة يوسف عبد الجليل.

قال توفيق:

ـ إنه دكتاتور ناعم لهذا الشعب.

فيما قال نصير:

ـ نحتاج إلى تاريخه وقوته لنواجه ما يحدث.

وقالت ليلى:

ـ فعلاً، إنه يحصل على حقوقه بالتي هي أحسن، أو بالتي هي أخشن.

ولم أقل إنه رجل له كثير من الحب في قلبه. . . لي. . . لأفراد جريدته. . . ولكن من يحتاج إلى ذلك الحب من أبناء الوطن. . . أعرف. . .

كثيراً ما بالغت تجاه هذا الرجل، لكننا أحياناً نحتاج إلى بعضنا بعضاً، المبالغة لمزيد من الاعتراف بالجميل:

ـ حضرة النقيب. . . (قلت له على الهاتف في الساعة التاسعة ليلاً).

ـ نعم، غزالتي الصغيرة.

ـ تمنيت أن أراك لأقول لك مبروك. .

ـ وأنا أيضاً تمنّيت ذلك، لكنني سأغيب غداً أيضاً. سأسافر إلى العاصمة لإتمام بعض الإجراءات.

ـ إذا سأنتظرك بعد غد.

ـ بعد الظهر.

ـ سأحضّرُ لك مفاجأة.

ـ وأنا سأحضّرُ لك مفاجأة.

ـ أعرف... المصحف.

ـ لويزا...

ـ نعم...

وصمت قليلاً، كمن كان متأهباً ليقول كلمة حب، ثم تراجع.

ـ سنحكي في الموضوع بعد غد.

ـ لِمَ لا تقول الآن؟

ـ أخاف عليك من البرد، فما عندي كثير، وأنا أعرف أنك تتصلين من هاتف خارجي.

ـ هل تنزعج إذاً...

ـ أنا لا أنزعج منك... أبداً... قولي...

أخذت نفساً وقلت له:

ـ يوسف.

ـ نعم؟

أخذت نفساً أعمق؛ وانهمرت دموعي مرة أخرى من ذلك الفرح الضاغط على صدري بكل قواه، لم أصدّق أنني في تلك اللحظة امتلكت العالم كله بين يديّ. هكذا الحب، يضع الكون في كفنا الصغيرة ويغني لنا نشيد الانتصار.

ـ يوسف (قلت له مرة أخرى) أحبك.

قال:

ـ وأنا أيضاً.

منحت لنفسي بعض الوقت لاسترجاع هدوئي وعدت إلى الغرفة، لأجد حنان منغمسة في حساباتها لتحضير حفلة بدار الصحافة على شرف النقيب.

ـ أظن بأن الجريدة كلها لم يكن لها معنى بدون وجود حنان،

شوارع قسنطينة...

الجامعة...

كل شيء يأخذ طعمه الخاص والمميز بوجودها، وحتى الأفلام التي نشاهدها معاً، تعلق بالذاكرة أكثر مع تعليقاتها الساخرة.

كنت سعيدة، لكن طقسي الداخلي بارد وكئيب.

سألت حنان عن تفصيلات الحفلة لكنها طوّقت كل مخاوفي وكل سعادتي تلك بعينيها وقالت لي:

ـ أشعر أنك قلقة نوعاً ما، هل أنا مخطئة؟

قلت لها:

ـ أصبت.

فقالت:

ـ خطيبُنا زياد، إنجيلنا الغُبْطة على القلب.

زياد... رحباني آخر مجنون...

كنا نسمعه أكثر من مرة في اليوم أحياناً، وكان السؤال ذاته يخطر على بالي، حين أشعر أنني على وشك الموت من الضحك: كيف أنجبت فيروز التي تبكينا وتثير فينا بحور الحنين حين تغني، رجلاً يُضحكنا بنقده اللاذع إلى درجة البكاء أيضاً...

وكنت لا أجد الجواب.

أصغي لتعليقاته، كأنما أسمعها في كل مرة لأول مرة، وأضحك حتى تنهمر دموعي...

لولا زياد لمرّ ليلي ثقيلاً بالشوق والخوف،

ولولا انهماكاتي مع الزملاء في اليوم التالي بتزيين القاعة الكبيرة في دار الصحافة لشعرت أن الدّهر كله تجمّع في ذلك اليوم.

لكني من تعبي في ذلك اليوم نمت مثل الموتى لولا ذلك الكابوس الذي يزورني في شكل رجل مقنّع يحاول خنقي من حين لآخر. قمت مذعورة...

كانت نرجس تصلّي كعادتها، وحنان تغط في نوم عميق توضأت وصلّيت أنا الأخرى.

وفاجأتني نرجس بفتح موضوع نسيته تماماً:

ـ إنك فتاة صالحة يا لويزا، تواظبين على الصلاة وتحبين الخير، فلماذا لا ترتدين الحجاب؟

قلت لها بصوت منخفض:

ـ دعي جراحي تنام لوقت إضافي، هل تصدقين إذا عرفت أنني كنت أرتديه، ثم خلعته.

قالت مذعورة:

ـ لا تقولي ذلك.

قلت لها:

ـ إنها الحقيقة، لكني اضطررت لخلعه، لا أحب الحجاب الذي يزج بي في تيار سياسي، أو قالب امرأة قديمة، أنا هكذا مرتاحة... ثم في الأخير شبابنا ما يخلّيوا حتى واحدة في حالها.

ـ يعني في هذه عندك الحق، لا أدري لماذا تدنّى مستوى الأخلاق عندنا لهذه الدرجة؟

ـ أنا سأقول لك، لأن الرجل الجزائري ربّاه الشارع، والمرأة ربّاها البيت.

ـ قولي ربّاها التلفزيون.

كانت تلك معادلة مجتمع صعب، أطرافها لم تقبل قط علامة المساواة.

وإذا كان الرسام الفرنسي «رينوار» قال ذات يوم إنّ المرأة الجزائرية ترى العالم من ثقب الباب، فهي اليوم ترى العالم عبر شاشة التلفزيون.

فحتى الثقب سدّته الأحداث الجديدة التي أخذت مساراً مأسوياً.

وقد تذكرت ذلك التحقيق الذي أجرته زميلتي ليلى حول أهمية التلفزيون في حياة الناس، فوجدت أن أغلب النساء بإمكانهن الاستغناء عن أي شيء ثمين لديهن لكن لا يمكنهن الاستغناء عن التلفزيون. وقد أكدت أغلبهن أنه مثل فرد مهم بالعائلة، يشعرهن بالأمان والطمأنينة. وتذكرت خالي الذي يدخل أحياناً فيجد التلفزيون شغالاً دون أن يكون أحد منا يشاهده. فيطفئه، لكن بمجرد أن يفعل ذلك نحتج، لأسباب لا تقنعه أبداً... لأنها غير مقنعة فعلاً...

نفضت عني كل الأفكار التي يمكن أن تدخلني في

متاعة مظلمة وقطعت الحديث مع نرجس بتشغيل الراديو، لتملأ الموسيقى الشرقية أجواء الغرفة، فتصحو حنان، ونبدأ معاً يوماً جديداً، أتممنا فيه قضاء بعض حوائجنا في الصباح. وخلال فترة الظهيرة حضرت نفسي للحفلة، وقد حاولت أن أكون في بساطة الممثلة Meg Ryan التي أحبها كثيراً، لئلا أبدو مثيرة للشك في الحفلة.

■

كل شيء أصبح جاهزاً لاستقبال النقيب...

الزملاء مبتسمون والأحاديث فيها كثير من المزاح والفرح، رغم الحزن القابع في جنباتنا جميعاً على من رحلوا. توفيق كان قلقاً، ولم أفهم لماذا لم يلتصق بي كعادته، ظل ملازماً نصير وليلى ومجموعة من الكتاب الشباب ورسامي الكاريكاتور.

أنا بقيت واقفة أمام النافذة، أترقب وصوله، وبين الفينة والأخرى أسبح بنظري بين الغيوم، أهرب من تجاهل توفيق المفاجىء لي، وفي الأخير قررت أن أكلمه بالأمر، أشرت له أن يقترب مني، وبعد لحظة تجاهل إضافية، اقترب وقال لي:

ـ ما الأمر؟

ـ أنت ما الأمر؟

ـ لا شيء، أنا بخير.

ـ لماذا تتجاهلني إذن؟

ـ لاحظي أننا لسنا وحدنا.

ـ لكن هذه ليست عادتك.

ـ أعرف، لأنها عادتُكِ أنتِ.

ـ توفيق، رجاءً لا تحسسني بالذنب.

ـ لن أحسسك بالذنب، سآكل قطعة، «محجوبة» من التي أحضرتها حنان، فلم يعد باستطاعتي الصمود أمام رائحتها الشهية...

وفعلاً تناول قطعة وبدأ يأكل منها، وهو يردّد:

ـ كم هي لذيذة... اللّه... اللّه على حنان وأفكارها الذهبية...

شعرت أن كل ذلك هروب مفتعل، لكنني لم أفهم منه ذلك التصرف بعد، فقلت له:

ـ إنك تهرب.

ـ لا، أنا آكل.

ـ توفيق...

ـ هل تعرفين أن الشحم مضرّ بالإنسان؟

ـ أعرف، وماذا بعد؟

ـ الشحم المستعمل في «المحجوبة» غير مضرّ كثيراً.

ـ ها... ها... ها... كيف عرفت (قلت مستعضة).

ـ أنا طبيب، هل نسيت؟

ـ لا... أنت صحافي على ما أظن.

ـ على ما تظنين...، هل تعرفين يا لويزا، في سورة الأنعام قال الله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ صدق الله العظيم. حسب هذه الآية، الشحوم المحدّد ذكرها محرّمة علينا أم لا؟

ـ لِمَ لا تسأل إماماً أو أحد أساتذتك بالجامعة بدل أن تسألني أنا التي لا حول لي ولا قوة؟

ـ سألت أحدهم، فقال لي الآية تقصد اليهود.

ـ خلاص... تخص اليهود...

ـ معنى هذا أنهم فعلاً شعب الله المختار، يخاف عليهم الله أكثر منا.

ـ إلى ما تريد أن تصل؟

ـ من المفروض أن تخصص الجامعات الإسلامية في كل البلاد الإسلامية لذوي الاختصاص، يعني لا يسمح بالانتساب إليها إلا للأطباء، والفلاسفة، وعلماء البيولوجيا، والجيولوجيا، وذوي الاختصاص، أمّا أن تفتح للمراهقين وكل من هبَّ ودبَّ، فهنا الكارثة، حتى إن المدرسين فيها يقفون عاجزين أمام بعض الأشياء العلمية. لو كنت مديراً لهذه الجامعة لخصصت دعوات كل سنة لأهم العلماء في العالم ليناقشوا موضوعاً معيناً ويُدرِّسوه علمياً للطلبة إذا كان من المفروض إعطاء الفرصة للجميع لأخذ العلم منها.

ـ تجد دائماً موضوعاً يفوق قدراتي لتتحدّث فيه، أنا يهمّني أن أعرف ما بك اليوم.

فقال لي بحزن مفاجىء:

ـ لا شيء يا لويزا، لا شيء.

وعاد إلى مجموعته.

بعد لحظات لمحت سيارة يوسف عبد الجليل، أشرت لحنان من بعيد أنْ وصل، اقترب مني عيسى، وهيّأ كاميرته وقال لي وهو ينفخ صدره نحو الأمام:

ـ سآخذ له صورة تاريخية.

نزل من السيارة، ورفع رأسه إلى فوق، ابتسم لي،

وحمل بيده شيئاً ثم أغلق الباب، وقد ركض الحارس نحوه يسلّم عليه، كان بادياً أنه يهتمّ.

تقدّم بعض الخطوات نحو الباب، ثم رفع رأسه مرة أخرى وأراني العلبة المزخرفة، حاملاً إياها نحو الأعلى قليلاً وقد عرفت أنه المصحف الذي أحضره لي.

لكن ثلاثة شبان لا يتجاوز واحدهم العشرين قفزوا فجأة من وراء الزاوية، ناداه أحدهم بصوت مرتفع:

- يوسف عبد الجليل.

التفت يوسف نحوهم، وهو ما زال يحمل المصحف، التفت. . .

كلنا كنا نشاهد المشهد. . . وكأنه حدث بالتصوير البطيء، أخرج أصغرهم مسدساً من تحت سترته، وأطلق نحوه الرصاص.

لا أدري كيف كان صراخنا فيما بعد، كيف ركضنا من الطابق العلوي إلى الخارج دفعة واحدة، وكيف واجهنا مشهد الدّم لرجلين اخترقهما الرصاص؛ يوسف عبد الجليل، وعلى مقربة منه الحارس عمي مسعود. كان المشهد لا يقول شيئاً بالنسبة إليّ سوى أنني فقدت الكون الذي كان بين يدي.

ركعت أمامه، وحاولت الارتماء عليه وأنا أصرخ

وأبكي، حاولت لملمة الكون الذي كان ملكي وصار جثة تتغطى بمصحف اخترقه الرصاص ورداء من دم.

لكن أحدهم امسك بي، أبعدني قليلاً عنه...

وأصوات... أصوات...

وإذا بتوفيق يمسكني، ويصفعني، لأنتبه وهو يقول لي:

ـ ما زال حياً، توقفي عن البكاء، ما زال حياً....

تحرّك الجميع بسرعة، حين طارت سيارتان إلى المستشفى الجامعي، إحداها حملت يوسف والثانية ذلك الحارس الطيب، الذي كأنما تنبّع تلك الوظيفة من أجل أن يتحمّل جزءاً من المسؤولية التي يتحمّلها كل صحفي ومثقف.

حلّ الفزع والفجيعة على المكان.

بعدها غادرنا جميعنا نحو المستشفى، تاركين بقايا حفلة لم تبدأ للفرح مؤجل.

نرتعش خوفاً من الغياب... من العزلة... من ذلك الانفراد الذي تفرضه علينا ظروف.

Nous craignons l'isolement comme la mort mais il y a toujours des querelles, des brouilles passagères suivies de raccommodement à propos d'une fête ou d'un malheur.

«إننا نخاف العُزلة مثل الموت. لكن هناك دائماً خصومات وخلافات عابرة تليها مصالحات بسبب فرح أو فاجعة».

تذكرت هذا النص وأنا أجلس في مكتبة الجامعة، في اليوم التالي للحادث في مواجهة الزجاج الخلفي المطلّ على الشجر والمطر وحلمي الذي ينام في غرفة العناية الفائقة، إذ لم يكن بإمكاني أن أدخل أي محاضرة، ولا أن أفتح أي كتاب ولا أن أقرأ مزيداً من الرثاء على وطن ينتحر من على أكتاف أبنائه.

كنت أفكر في ذلك النص الذي ظل عالقاً بذاكرتي منذ

الطفولة، وكنت أسأل نفسي لماذا لا أتذكر لأي كاتب هو، المولود فرعون، أم لمحمد ديب، ثم رجحت الأول دون أن أعرف السبب، لكنني حتماً كنت متأكدة أن ما يعلق بالذاكرة له علاقة باحتياجاتنا أو بتلك الفرف التي نتركها شاغرة لحلم نأمل أن يتحقق ذات يوم، أو بأيام جميلة لا يمكنها أن تتكرّر لأنها مضت مثلما يمضي بنا العمر كله ولا يعود. ورحت أفكر ماذا لو كان هذا العالم خالياً تماماً من الكتب؟

أكان بإمكاني أن أحتمل غياب والدي، والحياة تحت سقف لا تغادره الغيوم وحزن أمي، وتحلّ عليه أكثر من خيبة كلما صدر قرار وزاري كذلك الذي غيّر مجرى حياتي نحو الغربة والكتابة وذاك الذي منح قطعة حديد لخالي حميد كتب عليها كلمة «وسام» لتعوّضه حنان والده.

كنت ما زلت معلّقة النظر بعيون السماء الحزينة في ذلك الصباح حين انتبهت إلى أن توفيق كان يجلس أمامي كئيباً كالسماء. سألته:

ـ منذ متى وأنت هنا؟

ـ منذ ربع ساعة ربما.

ـ عفواً، لم أنتبه...

ـ . . . (أشار بيده فقط أنْ لا يهم).

ـ كيف والدك اليوم؟

ـ ما زال في غرفة الإنعاش، لكن ما أنقذه حتماً هو سمك المصحف والعلبة، الرصاصتان تعثرتا به، أمّا رصاصة الكتف فلم تؤثر.

ـ سيعيش أليس كذلك؟

ـ احتمال كبير.

ـ إنْ شاءالله.

ثم مرّت فترة صمت قبل أن يقول لي:

ـ ليلة ما قبل أمس كنت بانتظار مكالمة من صديقي الهادي، وحين ردّ الهاتف حملت السماعة، لكن والدي كان قد ردّ في اللحظة نفسها، وحين سمعت صوتك ظننتك ستطلبينني، بقيت على الخط، وسمعت ما دار بينكما من حديث دون قصد مني. . . لكني إلى غاية هذه اللحظة لم أفهمك. . . لم أفهمك قط.

كان آخر شيء يمكنني أن أتصوّره، آخر ما يمكن أن يخطر لي على بال، بحثت عما يمكن أن أقوله له، عن أي مبرّر يضمد انكساره، ولكنه لم يمنح لي فرصة للحديث.

قال وكأنما يعرض عليّ فرصة أخيرة للتراجع عن حب مجنون عمره قارب على الانتهاء:

ـ هل تظنين أن والدي هو الرجل الذي يلزمك؟ mon père!!

أصرّ أن يقول والدي... مرتين بحثاً عن ثغرة في عواطفي، أو قصداً لإحداث وخزة في قلبي.

ـ هل تظنين أنه جبار لا يخاف، وقادر على حمايتك، لقد جئته في فترة ضعفه لا غير، طرقت بابه في الوقت المناسب، فخُيِّل إليه أنه يحبك، ... (ثم قال بانفعال أكثر) إنني لا أتصوره معك في موقف حب... لكنني سمعته، وسمعتك، كلاكما يبحث في الآخر عمّا ضاع منه، «صح»؟

ـ إنك تهذي ترفيق.

ـ إنك طفلة.. مراهقة... دعيني أقول لك إنني أنا حبك، أنا رغبتك، ولهذا لم تحاولي ولو مرة إنهاء علاقتنا بوضوح، لم تجروئي ولو مرة على مصارحتي برفضك لي، لماذا تحاولين الاحتفاظ بي إذاً؟

ـ إذاً اسمعها بوضوح، لست الرجل الذي أريد... لست أنت...

لم يقل شيئاً.

أخفى وجهه بيديه ورأيت الدموع تتسابق نحو ذقنه حين أزاحهما، لحظتها فقط عرفت كم كنت قاسية وأنانية في وضع كان يجب أن أكون فيه سنداً له.

لا... ليس سنداً... ربما كان أقوى مني أمام ما حدث. لكن...

وجب عليّ أن أتصرف كامرأة نبيلة تعتذر لصديق عن عدم تحمُّس عواطفها تجاهه للذهاب بها إلى أبعد من تلك الصداقة الجميلة...

ـ عذراً توفيق... كان كل شيء أقوى مني... كان كل شيء يسير نحو ما لم أختره.

قال...

ـ المشاعر كالأذواق... لا تناقش يا لويزا.

وكان بودّي أن أقول له:

ـ لا أريد أن أخسرك كصديق لكنني لم أقوَ على قولها، كانت ستكون محاولة فاشلة لإبقائه مرة أخرى في خانة الاحتياطي ليظل إلى جانبي.

كنتُ لا أثق بالحب رغم حاجتي إليه.

فالحب مثل الورود التي تهدى إلينا في المناسبات الغالية، نرميها في الزبالة بعد أن تذبل... يستحسن أن تظل بجذورها حيث هي نذهب إليها نحن كلما اشتقنا إليها

لا أن تجيئنا ملفوفة بأوراق السيلوفان وأشرطة جميلة لا معنى لها.

همّ توفيق بالقيام ثم تذكر شيئاً:

ـ ذلك الشخص الذي كنت معه في تلك الصبيحة قبل أن نلتقي عند «ديلو» من يكون؟

ـ إنه ابن خالتي جمال الدين.

ـ الثاني الذي كان يقف على مسافة منكما؟

قلت له بعد لحظة صمت:

ـ حبيب ابن عمي، لماذا تسأل؟

ـ تذكّرته، جاءني مرة منذ سنتين، طلب مني أن أبتعد عنك، بل حذّرني منك...

هكذا الزلازل... تبدأ بهزة وتنتهي بهزات أقل عنفاً.

الزلازل في داخلنا تفعل الشيء نفسه.

قلت له:

ـ حبيب فعل ذلك؟ غريب... لا أدري كيف أحببت هذا الشخص ذات يوم؟... وكيف تمنيت له كل الأشياء الجميلة التي تتمناها مراهقة عاشقة لفتى أحلامها... هل تعرف؟ لم أؤذه... قط؟

سكتت للحظة ثم أردفت:

ـ حروب أبناء الدم الواحد، كحروب الديكة، تترك الخراب، لكن المنتصر فيها «ينفخ ريشه» لا غير.

قال:

ـ لم أصدّقه في الحقيقة، حتى إني نسيته لكنني أردت إخبارك فحين رأيته تذكّرته، أعتذر إن أسأت إليك.

قلت:

ـ هو أساء إليّ... أساء إلى طفولتي على رأي مراد بوكرزازة... ثم قفزت إلى موضوع آخر، سألته:

ـ هل تذكر أول حديث دار بيننا؟

ـ أذكر... عن الاسم المستعار.

ـ نعم... يومها لم أقل لك عن احتمال آخر للكتابة باسم مستعار.

ـ الهروب؟

ـ لا... الانتقام.

كان ذلك آخر ما قلنا، وبالمصادفة جاء تتمة لأول حديث دار بيننا، فقد مدّ يده، وصافحني بشكل رسمي، تماماً كما فعل في أول لقاء كان بيننا، وقال لي بهدوئه ذاك:

ـ تتهلّاي في روحك (انتبهي لنفسك).

فيما قالت دموعهُ الكثير وهو يبتعد عني.

في اليوم التالي حين مررت على المستشفى لأرى يوسف، فوجئت بأنه نقل إلى المستشفى العسكري بالعاصمة. اتصلت هاتفياً بالبيت فلم يرد أحد.

وفي آخر الأسبوع حملت حقيبتي وتوجّهت نحو محطة المسافرين اقتطعت تذكرة على أول حافلة متوجّهة إلى باتنة، وقد تمنّيت لو أن الحافلة تتحوّل إلى بساط سحري، يحملني مباشرة إلى آريس إلى بيت خالي حميد، إلى حضنه، إلى حلمه المملوء ببساتين الطفولة، إلى نقائه الذي لم تطله بعد القرارات الوزارية، إلى ذاكرته التي لم تستطع فرنسا أن تنسفها بكل ما كانت تملكه من مدفعية، إلى فرحه الذي يسكن تلك الذاكرة منذ أكثر من نصف قرن لأن أزمة السكن ما زالت تحرم الفرح من شقة شرعية.

طوال الطريق كنت أحاول أن أجد شيئاً آخر غير حزني لأفكر فيه لكن الحزن كان في كل مكان.

في «أفرا» توقفت الحافلة لعطل مفاجىء لأكثر من ساعة. بعض الشبان كانوا ينكّتون كالعادة:

ـ جد لي الأخطاء السبعة بين «أفرا» الآن، و«أفرا» من ثلاثين سنة.

فأجاب أحدهم:

ـ في الأولى كان بن بولعيد، في الثانية مات بن بولعيد، وراح يضرب بضربات خفيفة صاحب السؤال، وصحّح له الجواب:

ـ تفوه عليك... واحد فطة... بن بولعيد مات شهيد أ... شْتْ... شهـ... د... ههْهمْدْ أتيغ أهّا؟ (هل فهمت أم لا؟).

ودوّت ضحكتهم، ثم قال آخر:

ـ في الأولى يوجد حافلة في الثانية لا يوجد.

وقال صاحب السؤال وهو يقطب جبينه ويرفع سبابته متوعداً:

ـ غلط... في الأولى يوجد حافلة معطلة، في الثانية الحافلة لا بأس عليها، هيّا اللّي منْبهة جاوبْ.

فقال المعني:

ـ في الأولى يوجد تلفون sans fil، في الثانية لا يوجد تلفون بالمرة.

فأمسك صاحب السؤال في شعره وراح يصرخ:

ـ كلْ شي بالعكس... انْتم وينْ قريتو؟

ثم التفت فجأة إلى أحدهم في الأخير وقال له وهو يقلّد الفنان الكبير عثمان عريوات في فيلم «الطاكسي المخفي»:

ـ أني شفتك... أنت اللّي منهية... حاسب رُوحك طبيب، نغليك، نقل والديك...

ثم وقف ومدّ قامته وأمسك مسطرة على شكل «T» وراح يشرح:

ـ هذ لبْلاد كيما جسم الإنسان اللّي دْخلْ فيه لـ: poison، بْدا بتفاحة بْونا آدم فْلْقلْها الزّانية وْصَلْ الـ: l'estomac إشْكْتَاها...

وارتفعت قهقهات الشبان فلم أعد أسمع شيئاً، غير كلمات متقاطعة، وبعد أن هدأوا قال الشاب بالنبرة السابقة نفسها:

ـ يعطيكم لَعْمى لا أخطاء سبعة بين الصورتين «الميزيرية» هي «الميزيرية».

ثم حلّ الصمت بينهم.

وحين انطلقت الحافلة من جديد، لمحت فتاة صغيرة، تتقافز ضفيرتاها من تحت منديل قصير يغطي أذنيها، وترتدي ملابس لا تنسيق في ألوانها وشكلها، كنزة صوف، فستاناً قصيراً، سروالاً ضيقاً، وحذاء لا لون له، تركض وراء قطيع صغير من الماعز، وامرأة تحمل على ظهرها «جيريكان» كبيراً من الماء. كانتا على ما يبدو

عائدتين إلى البيت، لكن صورتهما ظلّت عالقة في ذهني لما تبقى من الطريق.

نزلت من الحافلة عند آخر محطة، لفحني هواء الجبل البارد بقساوته، وأنا أسرع الخطى نحو البيت، كان المساء يرتّب أشياءه من حولي، وكانت الأضواء تموت على الأرصفة.

وأنا...

لا شيء في داخلي غير بقايا صور... بقايا أصوات، وبقايا تهدمي، تتقاذفني بينها دموع توفيق ودماء يوسف، كم كانا يتشابهان في تلك الرقة، كم كانا يتشابهان وهما يقولان الحب...

كم كانا...!

ـ ما بك، وجهك أسود، قالت أمي حين دخلت البيت.

ـ لا شيء قلت لها، أين خالي؟

ـ خير.. (قالت) ما الأمر؟

ـ لا شيء... أريده.

وضعت الحقيبة أمامها، وصعدت السلالم ركضاً، وقد وددت أن أرتمي في حضنه بمجرد أن يفتح الباب، لكن عوائقي الداخلية دقت أجراس الخطر بمجرد أن جاءت

عيني في عينيه، سألني عن أحوالي، سألته عن أحواله، وبحثت عن شيء يتناسب مع حزني لأقرأ.

وقفت أمام مكتبته أمرر يدي على أوجاع رفاقه، أي وجع يليق بليلتي المتخمة بالحزن تلك؟

فقال لي:

ـ قولي ما تريدين، قد أهوّن عليك أمر البحث.

قلت له:

ـ أريد شيئاً يؤازرني، أو يلملم بقايا الزجاج المكسور في داخلي، مدّ يده نحو كتيب صغير ووضعه في يدي.

«ما تبقى لكم» لغسان كنفاني.

قلت له:

ـ لا أريده، تعبت من قضايا العرب.

فقال:

ـ لا تقرئي شيئاً إذاً، خذي شريطاً للرحابنة واسمعيه،

قلت له:

ـ فعلاً، عندك حق.

فقال:

ـ أمن أجل هذا جئت تركضين إليّ من قسنطينة؟

لم أجبه، تواريت وراء صمتي، وحتماً، كان قد فهمني، لذا واصل الحديث:

ـ ما مصير جريدتكم؟

قلت له:

ـ لا أدري.

قال:

ـ وعبد الجليل؟

قلت:

ـ أيضاً لا أدري، لم أسمع عنه شيئاً بعد أن نُقل إلى العاصمة.

قال:

ـ إذاً صحيح أنه سينتقل إلى القاهرة.

قلت وقد تحرّك قلبي من موضعه:

ـ إلى القاهرة؟

قال:

ـ هذا ما قالته الصحف.

قلت له:

ـ لم أقرأ الصحف، لم أنزل حتى إلى دار الصحافة منذ الحادث، لكن لماذا القاهرة؟

قال:

ـ حسب ما كُتب، الرئيس شخصياً وجّه له دعوة لقضاء فترة النقاهة في مصر، لا تنسى أنه كاتب معروف

ومحترم، عدا أنه شارك متطوعاً في حرب أكتوبر 73 بمصر.

سكت قليلاً ثم أردف:

ـ أظنه هذه المرة اقتنع بما اقتنعت به أنا منذ سنوات. . .

ـ لن يعود أليس كذلك؟

ـ أعرف أنه طلّق الغرب بالثلاث، لكنه يحب المشرق، مصر أو لبنان على الأصح، فنحن شعب جاف لن يجد بيننا مبتغاه. إنه رجل رقيق رغم ما يبدو عليه من قسوة. . .

ياه. . . !

من يعرف رقّته أكثر من غزاله الصغيرة؟

من يعرف رائحة ذقنه وأحلامه غيري؟

من يعرف أغنية قلبه غير قلبي الذي يغنّيها اليوم على انفراد؟

من. . . غيري أنا. . . أنا وليس المشرق؟

عدت إلى غرفتي متنكّرة بابتسامة. . . منكسرة بوتد ذاك الخبر الذي عرفته من خالي ثم سمعته من نشرة الأخبار المسائية.

عدت. . .

وأكوام من الحجارة تملأ صدري، وكثير من القصف حلّ على رأسي...

وعادت أمي تسألني من جديد:

ـ ما بك يا لويزا... لست أبداً على ما يرام.

قلت لها:

ـ غرفتي باردة يا أماه... غرفتي باردة.

فسارعت إلى إحضار مدفأة كهربائية صغيرة، وضعتها قرب سريري ظناً منها أن البرد الذي أشعر به من علامات الحمى وبداية زكام، إذْ خرجت وعادت بعد قليل تحمل لي فنجاناً ساخناً فيما كنت أفكر:

هل يمكن لهذه المدفأة الصغيرة أن تعوّضني دفء من أخذته مني القاهرة؟

غرفتي باردة يا أماه... غرفتي باردة...

هل تفهمين معنى البرد الذي يرتدينا ككفن حين تموت قلوبنا من الوحدة، وحين تنزوي مشاعرنا في الركن الذي لا تصله الشمس؟

كنت متعبة جداً من نفسي، مرعبة من ذاك الفزع الذي ابتلعني كحوت...

مرعبة... وبحاجة إلى شخص ما يفهمني، يسمعني،

أو يقول لي أي شيء يخفف عني وطأة ما حدث، ولهذا اتصلت بحنان. سألتها:

ـ ماذا تفعلين؟

أجابت:

ـ أفكر.

قلت لها:

ـ وأنا أيضاً.

قالت:

ـ هل تظنين أننا سنبدأ من جديد؟

ـ ربي عالم.

ـ حتى يتزوّج المِلّح نظن.

ـ لماذا تزيدين من ألمي.

ـ هذا زهرنا ولّا مكتوب ربي، والله ما على بالي.

ـ أشعر أنني على وشك الموت يا حنان، لا أصدق أنني لن أراه ثانية.

ـ سيعود... والمهم متأنش... ربي يطوّل في عمره.

ـ آه يا حنان!

قلت لها، آه! ولم أجد بقية للكلام.

آه!

كنت أحتاج إلى «آه» تقلب جوفي المثقل بما حمل،

وتقلب الطبقات المتراصّة فوق على بعضها من قعر المعدة إلى أعلى الحلق...

كنت بحاجة إلى تلك «الآه» التي تستنجد بالله وحده، تلك «الآه» التي تمزّق السماء، وتخترق الأزمان، وتلعن تلك الظروف التي أسّست تاريخاً من الفروق بيننا، وعمراً من المسافات تأخر الوقت لتقليصها.

قلت لحنان:

- ليتني رأيته قبل أن يسافر.
- شي ما يَنْفَعْ ضُرْك (الآن) صحّ ولّا لالا؟
- ... لا أدري.

ثم قالت وقد حضر مزاجها:

- لا تدرين... والله هذه خلُوَة... أنتِ واقيل رايحالك شويّة... au lieu (بدل) اللّي تبكيلي على سي يوسف تنشّديني (اسأليني) على هذاك المَغْبُونْ (ذلك المسكين).
- شكُون؟
- قوليلي شكُون... توفيق طبعاً.
- ما به؟

ـ على الأقل تذكرك، سأل عنك وحين لم يجدك ترك لك رسالة قبل أن يسافر.

ـ هو أيضاً سافر؟

ـ لكن إلى فرنسا، ولن يعود قال.

ـ ودراسته؟

ـ لم يعد يهمّه أن يقارن بين الأديان، وأظنه اختار الاختيار الصحيح، هكذا سيمارس مهنته في البلد الذي يحترم العلم.

ـ فرنسا. . . لا أصدّق. . . لماذا لم يسافر مع والده؟

ـ واش رَاحْ يدير توفيق في مصر؟ يغني «المالوف» وَلّا «الحوزي»؟ تعرفين كم يحب جدته «إجيني»، وهناك أكثر أماناً له على كل حال.

ـ هل تعرفين، إنني أفتقده.

ـ بسيطة. . . ستتعوّدين (وقبل أن تنهي المكالمة أردفت) خلّ لويزا، كاين فيلم «هدى ومعالي الوزير» على القناة الجزائرية في التاسعة تُرفة وداوي جراحك بيطلك.

سأنسى. . .

هذا ما أقنعت نفسي به في الأخير.

هذا ما حدث تقريباً، وأنا أنصهر بين كتل الناس، وأفقد ملامحي بين ملامحهم، وأنسى قلبي في الزحمة.

لولا... تلك المواجهة المسائية بيني وبين البرد الذي يسكن الجدران، والأرائك، وأشيائي التي خزنت فرح عشقي الأول، والتي حين أحاول الهروب منها أجد نفسي، أتقفى آثاره من جديد، في ما قرأته له... في ما أقرأه له دائماً ألاحقه حين يطلّ بين وقت وآخر عبر الشاشات العربية. وأجدني معه بين شاشة وكتاب تلك المرأة التي تحتمي بخيالها من الجنون ومرارة الاكتئاب.

وربما اقتنعت في الأخير أننا قد نكتفي بطيف رجل كهذا لنحافظ على اتزاننا أمام هزّات الحياة.

وربما هنا فقط، فهمت خالي حميد الذي يجد اتزانه في مكتبه الحافل بالتاريخ، بين صور الراحلين الأحياء.

■

بينهم... حيث الثورة لا تزال نظيفة.

وحيث جدّي بشبابه، بنضارته وابتسامته، يقيم طقوس تمسكه بالحياة.

كنت أسأل خالي، أمام صوره التي تشاركه متاعب الأيام:

ـ هل يمكن للصورة أن تعوّضنا دفء الحياة؟

وكان يجيب حسب مزاجه مرات:

ـ بـ «إيه» مختصرة كل حزنه وخيباته حين يكون الحبل

شاداً على عنقه، ويطلق الفنان لفلسفته حين يكون أكثر هدوءاً:

ـ بعض الناس يعبدون الصور يا لويزا، فكيف تسأليني هذا السؤال؟ نحن لا نعبدها لكننا نبحث فيها عن تلك التفصيلات التي تفرح القلب، لا أقل ولا أكثر.

آهــه...

حين أغمض عيني فتحضرني تلك التفصيلات التي توقد نيران الذات، يحضرني انفعاله، يوسف عبد الجليل، غضبه، طريقته في اختطاف المرء بنظرة، قلقه، وقفته المكابرة، وجوده الجميل...

في الأخير...

أجدني أحتفظ بكل صور انفعاله، بكل صور قوته، وبعض من مواقف ضعفه لأنها حدثت أمامي أنا فقط.

لطالما تمنّيت لو أن الزمن توقف عند نظرته، لكنه تعثّر بتلك الرموز المشتركة بينه وبين توفيق... وهناك توقف، وهناك تعثّر العمر كله...

وربما حاولت أكثر من مرة أن أقلع من جديد نحو فضاء آخر، لكن غيابهما معاً فتّت أكثر من معنى في داخلي، شتتني، أضاع أجزاء كياني بين ما أريد وما لا

أريد، كسر بوصلتي الطبيعية، فلم أعد أعرف أين الاتجاه الصحيح.

حتى في الحب...

لم أهتدِ إلى طريق تجربة الحب الذي يتكرّر... لم أهتدِ إلى رجل يغمرني دفئاً، يحوم حولي، وأحوم حوله، ككوكبين لا يفترقان، ولهذا أخفيت أنوثتي، أودعتها في ثنايا الخوف اليومي من رصاصة مباغتة، أو خبر موت مفاجيء، أو خبر هزة سياسية جديدة... ذبت في تفصيلات الوطن المرتعش، وتعوّدت الوقوف اليومي أمام جنائز تمر، وتعطّل حركة الشوارع أمام طقوس الحزن، تعوّدت ارتشاف مآسي الوطن، مثلي مثل كل المثقفين الذين يحتمون بأوراقهم وأقلامهم من انكساراتهم المتكرّرة...

شيء واحد تفطّنت له ذات صبيحة من شهر مارس، الرابع عشر من مارس، حين خرجت من البيت كعادتي متوجهة نحو محطة الحافلات فالتقيت أحد أساتذتي في الثانوي، قال لي:

ـ آريس لا تكون جميلة إلّا في مثل هذا اليوم.

كان أول يوم في الربيع حسب الشهور البربرية، وكان الفلاحون حريصين على تزيين الأشجار بباقات من نبتة

«الدرياس» وحرق بعض النباتات التي تبعث الدخان، كطقس من طقوس استقبال موسم جديد يتفاءل أن يكون موسم خير.

قلت له:

ـ فعلاً،

ويومها أدركت، أن آريس التي حاولت السلطات تكريمها وتكريم شهيدها الأول مصطفى بن بولعيد بماراطون متواضع يتسابق فيه الأطفال، لا يستطيع أن يكرمها سوى فلاحيها البسطاء بطقس مثل هذا الطقس المتميّز تفاؤلاً بالحياة. ويومها عرفت أننا نحن من يجب أن تعطي الحياة لمن تحب، ومن هنا بدأت أفكر في كتابة رجل آخر له ملامح يوسف، وتاريخ الوطن، له حضور يوسف، وجرح يوسف، وكتابة امرأة أخرى لم تعد مراهقة.

27 جانفي (شباط) 1999

مزاج مراهقة

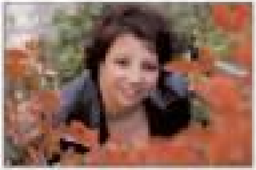

الحجاب..

الحب..

الحرية..

تحتار المرأة العربية كيف تعيش، من ترضي ومن تغضب؟

قوانين خلقها تسيجها من كل الجهات

قوانين حمايتها غائبة تماماً

كل ما هناك قوانين عرفية تحميها وهمياً

وتنسف كيانها في الواقع على جميع الأصعدة؟

مزاج مراهقة رواية تناقش هذه الموضوعات.

فضيلة الفاروق

روائية جزائرية مقيمة في لبنان

مواليد 1967 ، الأوراس ، الجزائر

خريجة جامعة قسنطينة، ماجستير أدب عربي

تكتب صفحة أسبوعية اسمها «نعيمة شرقية» في مجلة روتانا.

صدر لها

- لحظة لاختلاس الحب، دار الفارابي 1997.
- مزاج مراهقة، طبعة أولى، دار الفارابي 1999.
- تاء الخجل، رياض الريس للكتب والنشر 2002.
- اكتشاف الشهوة، رياض الريس للكتب والنشر 2005.

ISBN 978-9953-71-221-7

9 789953 712217